الكتاب الثانى

الشرق خلال العصر الرومانى

١-الشرق تحت الحكم الروماني

سبق أن تحدثنا عن واقع العالم الهلينستي المتطاحن المتصارع من قرب نهاية القرن الثالث ق.م، وكيف حاولت دوله الكبرى التوسع على حساب الكيانات الصغرى. وكيف أدى واقع التمزق الذى عاشته دول العالم الهلينستي الى تمهيد السبيل أمام روما لكى تسيطر عليها واحدة تلو أخرى.

كانت أول الدول الشرقية سقوطا فى يد الرومان هى برجامم التى ورثتها روما عن أتالوس الثالث ١٣٣ ق.م. وقد حولتها الى ولاية رومانية منذ عام ١٢٩ق.م باسم ولاية آسيا. تلتها بثينيا وقد حولها الرومان الى ولاية فى عام ٧٤ق.م. كما كونت روما ولاية من إقليم كيليكيا فى جنوب آسيا الصغرى وضمت اليها قبرص وكان ذلك فى الفترة بين ٦٤ الى ٥٨ ق.م. وحول بومبى سوريا الى ولاية رومانية بعد استسلامها له فى عام ٦٤ق.م. وضم أكتافيوس مصر الى أملاك الشعب الرومانى فى عام ٣٠ ق.م. وصارت جلاتيا ولاية رومانية فى عام ٢٥ق.م. وهكذا تكونت الامبراطورية الرومانية قبل وفاة اغسطس اذ إكتفى الاباطرة من بعده باضافات هامشية، كما قسموا الولايات القديمة الى أعداد مضاعفة من الولايات الجديدة .

فتزايد عدد الولايات حتى بلغ أربعا وأربعين ولاية فى عهد السفيريين وما يقرب من مائة فى عهد قسطنطين (٣١٢-٣٢٧م). والمناطق التى فتحتها الامبراطورية الرومانية فى الشرق بعد أغسطس هى كبادوكيا (١٧م) بمفيليا ولوكيا (٤٣) وتراكيا (٤٦م) وبلاد العرب النبطية (١٠٦م)(١) وولاية مابين النهرين (١١٥م) وولاية آشور (١١٥م). وبالنظر الى الخريطة يتضح أن هذه المناطق الجديدة تقع على حواف وحدود الامبراطورية، فضلا عن أن أغلبها لم تكن فتوحا ثابتة بل تقلبت تبعيتها بين الرومان وغيرهم مرات.

والواقع أن العوامل التى دفعت الرومان للتوسع اصلا كانت دوافع وقتية فى البداية فرضت نفسها على التفكير الرومانى، ومن ثم جاء هذا التوسع بغير خطة مدروسة. فبداية إتجاه روما للتوسع فى شرق البحر المتوسط جاءت بسبب رغبة روما فى حفظ التوازن فى هذه المنطقة بين حكام العالم الهلينستى بحيث لايتضخم نفوذ واحد من هؤلاء الحكام على حساب الآخرين. ومن ثم يصبح هذا الحاكم بعد تزايد نفوذه خطرا يهدد

---

(١) يطلق على سكان المنطقة النبطيون وكانوا يعملون بالتجارة؛ حيث حققوا ثراء كبيرا بتجارتهم فى بضائع جنوب الجزيرة العربية. وقد حاول أتيجرنس فى عام ٣١٢ أن يغزم عاصمتهم البتراء دون نجاح. وبقى ملوكهم مستقلين عن السلوقيين أيضا. إستولى أريتاس الأول ملكهم فى عام ١٦٩ ق.م على مزاب واحتل أريتاس الثالث فى عام ٩٦ ق.م دمشق ولكنه إنسحب منها قبل وصول تيجرانيس فى عام ٧٠ ق.م. أصبح النبطيون فيما بعد حلفاء وأتباعا لروما أيام ملوكهم عبيدة Obedas الثانى ٦٢-٤٧ ق.م ومالخوس الأول ٤٧-٣٠ق.م وعبيدة الثالث ٣٠-٩ ق.م وأريتاس الرابع ٩ ق.م ٣٩ م ومالخوس الثانى ٤٠-٧١ م وRabilus ٧١-١٠٦ م. وقد حول الامبراطور تراجان بلادهم فى العام الأخير الى ولاية رومانية باسم الولاية العربية.

روما ومصالحها من الشرق.

ثم تزايد التدخل الروماني بسبب لجوء الفرقاء المتصارعين إليها لكي تحسم الخلافات بينهم. صدق هذا على الأمراء المتصارعين على عرش إحدى الدول كما صدق على الدول المتصارعة بهدف توسع أحدها على حساب الأخرى. وهكذا أصبح التدخل الروماني في شئون دول شرق البحر المتوسط أمرا واقعا متكررا خاصة بعد إنتصاراتها في حروبها المقدونية وحروبها ضد الدولة السليوقية. وتضخمت هيبة الرومان في نفوس حكام الشرق، حتى أنها في أحيان كثيرة كان تكتفي بارسال مندوب أو مجموعة من المبعوثين لفرض رأيها عوضا على تحرك الجيوش وإعلان الحروب (١).

أضاف الى هذا العامل وغذاه ماخلقه الصراع الداخلي في روما من رغبة الزعماء في تحقيق إنتصارات تحسب لهم عند حسم الصراع على السلطة في روما. ومن ثم بدأ التنافس بين الأحزاب في سبيل ضم هذه المنطقة أو تلك الى أملاك روما. ووصل التنافس بين الزعماء الرومان من أجل قيادة حملة عسكرية الى حد الصراع السافر واللجوء الى الأساليب والمناورات غير المشروعة(٢).

---

(١) ذهب كاتو ومعه سفينة للاستيلاء على قبرص ، ولم يجد الملك البطلمي هناك من طريقة للتخلص من المأزق الإبالانتحار بدون مقاومة ، وذهبت قبرص الى أملاك روما دون حرب فرنزي مكاري ، قبرص تحت حكم البطالمة ملخصا ١٩٨٥م

(٢) راجع تفاصيل الصراعات بين القادة الرومان في القرن الأول ق.م . فسلا يغزو روما في عام ٨٨ ق.م من أجل تأمين قيادته لحملة على الشرق. وبومبيوس وكراسوس يتحالفان من أجل نفس الهدف ويهزمهم الفرسان. فرنزي مكاري ، تاريخ الرومان ، القاهرة ١٩٦٢م.

جايوس، واستطاع أن يطرح الرلاء لروما بعد عودته بقليل. ولكن الأمبراطور لم يسمح للاحداث على الحدود الشرقية أن تتجاوز هذا الحد رغم وقوع مشاكل داخلية فى كل من أرمينيا وبارثيا خلال السنوات العشر الاخيرة من حياة الامبراطور.

أن سياسة أغسطس تجاه أرمينيا وبارثيا كانت وسطا بين سياسة تيبرو أنطونيوس الهادئة الى هزيمة أرمينيا وبين تركها مراحة للسيادة البارثية. الاتجاة الأخير الذى كان الحل الأمثل للرومان بالنسبة للمشكلة الشرقية كان يواجه مقاومة حقيقية فى روما، أما الحل الأول فكان مغامرة غير مضمونة العواقب. أما سياسة أغسطس فقد أمنت الحدود الرومانية ضد الغزو وخففت من ذكرى الهزائم الرومانية السابقة بدون خسائر ضخمة سواء فى الرجال أو المال.

بقيت بعض القبائل الجبلية فى جبال طوروس ترفض الخضوع للرومان ولم تستطع حملات Servilius Iscauricus ولابرمبى أن تفرض عليهم التبعية لروما. وقد طلبت روما من الملك الجلاتى ديوتاروس وخليفته أمنتاس أن يمارسا بعض الرقابة على القبائل المتمردة. وبعد موت أمنتاس فى عام ٢٥ق.م ضم أغسطس جلاتيا وتولى مسئولية اقرار السلام فى الهضبة الوسطى.

لم يتخذ فى البداية أى اجراءات أكثر من بناء مستعمرة عسكرية

فى أنطيوخ فى Pisidia. ولكنه أمر فيما بين ١٢ق.م واحد ميلادية أمر حاكم جلاتيا P.Sulpicius Quirinius أن يطارد الهرمرناديس Homonadeis اللصوص فى غاباتهم على الحدود تجاه كيليكيا. وبعد عدة حملات شاقة إستطاع كويرنيوس أن يهدئ هذه المنطقة بإعادة توطين السكان فى السهول القريبة وأقيمت سلسلة من المستعمرات الجديدة - كانت لوسترا Lystra هى المستعمرة الرئيسية بينها- لكى تخدم كنقاط متقدمة للقاعدة الرئيسية فى أنطيوخ (١).

(٢)-الشرق فى عصر الموسوعة اليوليوكلاودية:

يهودية:

كانت منطقة الاضطراب الرئيسية فى شرق البحر المتوسط أيام الاباطرة المبكرين تقع فى فلسطين، حيث ظل السكان اليهود مصدر قلق وتمرد تحت الحكم الرومانى . وطبقا لاتفاقية أغسطس مع السناتو فإن حكام يهودية كانت لديهم تعليمات بالسماح للسكان بممارسة عبادتهم الخاصة. وقد مارس الكاهن الاكبر يساعده مجلس السنهدرين Sanhedrin فى أورشليم السلطات المعتادة لحكومة مستقلة فى شئونها الداخلية والقضاء والدين دون تدخل؛ وفى مقابل هذه التنازلات كان كبار الكهنة

---

(١) M. Carry & H. H. Scullard, Ibid, P. 333.

ولتحقيق أمن الامبراطورية وجد الرومان أنفسهم مضطرين الى الاهتمام بحماية حدود الأمبراطورية مع جيرانها من دول أو قبائل. وقد أدى هذا الى قيام الامبراطورية بأقامة نظام دفاعي وتحصينات على الحدود والدخول في الحروب واتفاقات مع جيران الامبراطورية في الشرق. ولكن أمن الولايات لايتحقق فقط بحماية حدودها وانما بالسيطرة أيضا على الولايات نفسها فجعلوا لكل منها حكومة هدفها الأول ضمان أمنها. كما لجأت الامبراطورية في أحيان كثيرة لقوات الجيش لكي تضرب أي محاولة للتمرد بين السكان. ولعل هذا يفسر التعديلات الكثيرة التي طرأت على حدود الولايات الشرقية بضم البعض أو فصل في ولايات مستقلة.

ضمت الامبراطورية الرومانية مناطق شرق البحر المتوسط وصارت كل بلاده ولايات رومانية. وبمقتضى اتفاق تم فى عام ٢٧ق.م. ثم اقتسام الولايات بين مجلس الشيوخ والامبراطور لإدارتها والملاحظ أن الإمبراطور قد إختص فى هذه الاتفاقية بالولايات المنضمة حديثا الى الامبراطورية وكذا الولايات الواقعة على الحدود فقد كانت الأمور هناك ماتزال بعيدة عن الاستقرار وفى حاجة الى تواجد عسكرى مكثف. بينما كلف مجلس الشيوخ بادارة الولايات التى إستتبت أمورها وانتظم الولاء فيها للرومان. والشرق فى أغلبه يقع ضمن الولايات الأمبراطورية، فيما عدا استثناءات بسيطه كولاية آسيا مثلا. والمعروف أن الولايات التى خضعت لمجلس الشيوخ كان يحكمها قناصل سابقون او برايتورز سابقون وتلك التى تتبع الامبراطور كان يحكمها ليجاتوس او بروكوراتور ولكن مصر وحدها كان يحكمها موظف آخر يدعى Praefectus وقد حاول المؤرخون القدامى والمحدثون أن يجدوا تفسيرات لهذا التصرف وغيره تجاه مصر فى إهتمام الاباطرة ابتداء من اغسطس بتأمينها حتى "لايصيب أحد إيطاليا بمجاعة عن طريق السيطرة على تلك الولاية ومنافذها البرية والبحرية...."(١).

---

(١) زكى على ، كليوباترة ، القاهرة ، بدون ، ص ص ١٥٢- ١٥٧

وقد عانت الولايات تحت الحكم الرومانى ظروف القهر السياسى والاستغلال الاقتصادى ومع ذلك لم تتوقف المقاومة المحلية أملا فى غد أفضل كما لم يتوقف إنسان هذه البلاد عن الإبداع والانتاج.

ويميز المؤرخون عادة بين فترتين من حكم روما للولايات الأولى : فترة الجمهورية وقد تميزت باستغلال روما للولايات التابعة لها بشكل عنيف وبشع. والثانية العهد الامبراطورى، فإن الولايات باستثناء مصر أصبحت لاتخضع لاستغلال منظم وأناني بمعرفة روما.

كان الاستغلال الاقتصادى للولايات فى العصر الجمهورى يسير فى طريقين: إستغلال رسمى تمارسه الدولة نفسها وإستغلال خاص يقوم به بعض الخواص الرومانيين.

ا ـ الاستغلال الرسمى كان يبدأ مباشرة بعد انهزام الشعوب. أعداد الأسرى العبيد والغنائم والغرامات الحربية فضلا عن إعتبار أراضى المهزومين من أراضى الدولة الرومانية Ager Publicus وكانت هذه الأراضى تخضع للتوزيع على الرومان أو تترك للأهالى مقابل اداء أتاوة يختلف اسمها وشكلها من إقليم لآخر. وكانت هذه الاتاوة تدفع إما عينا أو نقدا.

يضاف الى هذه الاتاوة ضريبة أخرى مباشرة وهى ضريبة الرؤوس Tributum Capitis وتؤدى على الأشخاص أنفسهم كما كان الحال فى

مصر وفى يهودية، وهناك ضرائب غير مباشرة كالمكوس والضرائب على إعتاق الرقيق وضريبة بيع العبد. بالإضافة الى ماسبق كانت بعض الولايات ملزمة بالمساهمة فى تموين روما بالقمح كما كانت روما تلزم كل ولاية بتموين الحامية العسكرية المستقرة فيها، ومن ذلك مثلا مافعله سلا فى ولاية آسيا (٨٥ق.م) عندما فرض تموين جيشه على حساب مدن هذه الولاية.

ولم تكتف روما بكل هذه الأشكال الاستغلالية، وإنما فرضت أشكالا أخرى من التدخل السافر فى الاقتصاد فمنعت بعض الولايات من زراعة بعض أنواع الأشجار حماية لانتاج ايطاليا.

ب ـ إستغلال المواطنين الرومان للولايات. ويمكن أن نحدد نوعين من المستغلين. فهناك الولاة وأعوانهم الذين كانوا يستغلون نفوذهم بتجميع الثروات على حساب الأهالى وكذلك على حساب الدولة الرومانية والأمثلة متعددة منها عدد من ولاة آسيا. وكان الولاة بصفة عامة يستغلون نفوذهم لمصادرة أملاك الأهالى ورفع قيمة الضرائب، كما كانوا يستفيدون من غنائم الحروب التى يشنونها فى الولايات(مثل حملات بومبيوس فى الشرق) بالاضافة الى الهدايا التى كانوا يتلقونها من أعيان المدن أو من شركات ملتزمى جباية الضرائب.

والأخيرون كانوا النوع الثانى من المستغلين. فقد كان ملتزمو جباية الضرائب - وغيرهم من المتعاملين فى شئون الولايات الاقتصادية- على إتفاق مع الولاة فى غالب الأحوال على إقتسام الأرباح وتنظيم الاستغلال.

وبالنسبة للشرق نجد أن شيشرون نفسه قد أوضح فى إحدى رسائله الى صديقه أتيكوس (١) كيف كان يوفق بين مصالح الجباة وقدرة الأهالى على تسديد الضرائب. ولما رجع الى روما كان هو نفسه قد جمع قدراً كبيراً من المال. وبالاضافة الى جباة الضرائب كبار التجار الذين تعاملوا فى القروض بفوائد مرتفعة بلغت ٤٨٪. ويكفى دليلا على مدى تأثر روما بما كان يجرى فى الولايات قول شيشرون "صدقونى ان كل قروضنا وكل الأعمال المالية التى تبرم هنا فى الفورم مرهونة بمداخيل ولاية إسيا".

ولذا كانت هذه هى حالة إستغلال روما للولايات فى القرن الأول ق.م فإن التغيير الأساسى الذى حدث خلال العصر الامبراطورى كان إستبدال ملتزمى جباية الضرائب تدريجيا بعدد متزايد من الموظفين العاملين لصالح الأمبراطور.

وقد سبقت الاشارة الى تزايد قوة الحكومة المركزية الذى إتسمت به الادارة فى عهد الأباطرة. ومنذ عهد أغسطس أنتزعت الدولة من الشركات جباية الضرائب المباشرة (الضرائب العقارية وضريبة الرأس). وأصبح الأهالى يؤدونها مباشرة الى الدولة . إما الضرائب غير المباشرة، فظلت تسند الى الجباة الملتزمين تحت مراقبة موظفين يعينهم الامبراطور لهذا

---

(١) T. Pomponius Atticus وهو رجل بنوك شديد الثراء إتخذ موقف الحياد سياسيا.

النرض تحت إشراف البروكوراتوريس Procuratores.

وقد أدى تشديد الرقابة على شركات ملتزمى الضرائب الى التقليل من أرباحهم ومن ثم بدأت تتقلص حتى إختفت على عهد تراجان (٩٧ - ١١٧ م) وحل محل هذه الشركات فى جباية المكوس أفراد أغنياء Conductores واسند ما بقى من ضرائب غير مباشرة الى موظفين حكوميين. وأصبحت كل الضرائب تجبيها الدولة إعتباراً من عصر ماركوس أوريليوس ١٦١ - ١٨٠.

كانت الضرائب تفرض على الولايات بصورة غير عادلة فبينما ظلت إيطاليا معفاة من الضريبة العقارية حتى القرن الرابع الميلادى كانت مصر مثقلة بمختلف الاتاوات . ولم تكن هناك كذلك إية عدالة فى توزيع أعباء الضرائب على الشرائح الاجتماعية المختلفة فبينما كانت الشرائح السفلى من المجتمع تؤدى الضرئب فعلا كانت الأستقراطية فى الأقاليم تتهرب بمختلف الوسائل من أداء الضرائب خاصة بعد ضعف السلطة المركزية إبتداء من القرن الثالث م.

خلاصة القول أن الدولة الرومانية كانت تعتبر الولايات مصدرا رئيسيا من مصادر الدخل وكان أهالى الولايات يتعرضون لكل أنواع الأستغلال من الرومان ومن الأستقراطية المحلية(١).

---

(١) M. Carry & H. H. Scullard, op. Cit 169 F. F.

٢- الشرق فى سياسة الامبراطورية الرومانية

(أ) الشرق فى عصر اغسطس:

كانت المشكلة الرئيسية فى سياسة أغسطس الشرقية هى علاقاته بملوك بارثيا وأرمنيا ففى أرمنيا استولى على العرش أرتاكسيس Artaxes وهو العرش الذى كان أنطونيوس قد اهداه لابن كليوباترة فى عام ٣٢ ق.م. وقام بمذبحة لكل الرومان الموجودين فى البلاد انتقاما لأبيه. وبعد معركة أكتيوم (١) والاستيلاء على مصر صار أغسطس مسئولا عن الثأر للرومان من أرمينيا، وإقرار الأحوال فى بارثيا، خاصة وأغسطس يقود جيشا قويا مستعداً، بينما كان الملك البارثى فراتيس Phraates مشغولا فى ذلك الوقت بحرب ضد أحد منافسيه المدعو تيريداتس Tiridates . لم يستغل أغسطس الفرصة بتسيير الجيوش ورأى أن إستعادة الهيبة الرومانية فى الشرق يمكن أن تتم باتباع الأساليب الدبلوماسية الهادئة بشرط أن تكون مضمونة النتائج. ولذلك لم يتخذ أى إجراء ضد أرتاكسيس وكذلك لم يقدم للثائر تيريداتس أكثر من دعم معنوى. وبعد عشر سنوات

---

(١) أكتيوم رأس فى الشمال الغربى لبلاد الأغريق وقد إنتصر اكتافيوس (أغسطس فيما بعد) هناك على الأنطونيوس وكليوباترة عام ٣١ ق.م.

ظهرت فرصة جديدة أمام أغسطس للتدخل فى شئون أرمينيا عندما سنحت المعارضة لاحلال تجرانيس محل أخيه أرتاكسيس على العرش الأرمنى . وكان تجرانيس قد أبدى رغبته فى روما فى أن ملكا عميلا للرومان . عندئذ أرسل الامبراطور ابنه بالتبنى تيبيريوس لكى يتوج تجرانيس فى العاصمة الأرمينية . وبمجرد استعراض للقوة كان تيبيريوس قادراً على حل كل المشاكل العلقة مع البارثيين (٢٠ق.م) . أغتيل أرتاكسيس وبتهديد بسيط بالغزو إستطاع تيبيريوس أن يجعل الملك البارثى يفرج عن كل الباقين من الأسرى الرومان لديه وكذلك كل الأعلام التى استولى عليها من قبل . وقد إستغل أغسطس هذه الانجازات غير المكلفة لكى يعلن أنه قد هزم أرمينيا وأنه فرض على الملك البارثى أن يجثو على ركبته . واستطاع بذلك ان يخرس الألسنة الداعية للانتقام من بارثيا.

بعد موت تجرانيس (٦ق.م تقريبا) وقعت أرمينيا من جديد تحت السيطرة البارثية . عندئذ لم يقم الامبراطور بأى محاولة جادة لاستعادة الأرض للفقردة الى أن وصل حفيده جايوس قيصر الى عمر مناسب لتولى قيادة الجيش. فأرسله الى هناك فى عام ١ق.م. وقد كرر جايوس قيصر ما سبق لتيبيريوس أن قام به فدعم أحد الأمراء المدعو Ariobarzanes للوصول للعرش الأرمينى. وأوقع الرعب فى قلب الملك البارثى الجديد فراتاكيس Phraataces. حقيقة حاول المقاومة ضد

عامل آخر دفع إتجاه الغزو والتوسع وهو رغبة أصحاب رؤوس الأموال الرومان فى تحقيق ثروات خرافية من خلال شراء ضرائب الولايات ومن ثم غذرا الصراع ودثره بما يحقق مصالحهم..

ويكفى أن نعلم أن سقوط آسيا فى يدى مثيرداتيس السادس(١) تسبب فى وقف الضرائب التى كانت تحصل عليها روما. وفوائد الأموال التى تذهب للمستثمرين الرومان، وقد كان هذا الوضع وراء التعجيل بإرسال حملة سلا (٨٨ - ٨٤) التى إنتهت بعقد صلح مع مثيرداتيس إنسحب على اثرها إلى عاصمته.

وهكذا وجدت روما نفسها خلال قرن واحد صاحبة السيطرة والسلطة فى كل المناطق التى مثلت العالم الهلينستى. إحتلت هذه دون تخطيط أو خطة مسبقة. ومن ثم لم يكن لدى الرومان طريقة جاهزة أو أسلوب محدد لكى يفرضوه فى إدارتهم للولايات الشرقية.

دعم هذه الحقيقة إنشغال روما بسلسلة من الحروب المتواصلة طوال الفترة التى كونت فيها إمبراطوريتها. فضلا عن إقتران الصراع الخارجى

---

(١) مثيريداتس السادس (يوباتور ١٢١-٦٣ ق.م) يعرف بالأكبر كان ملكا على بونتوس. إشتبك مع الرومان فى ثلاثة حروب. إنتصر فى الحرب الأولى على أغلب أراضى آسيا الصغرى وجزر بحر إيجة عدا رودس فضلا عن جزء كبير من بلاد الاغريق. إستمرت الحرب ٨٨ الى ٨٤ ق.م وقد هزمه سلا وأرغمه على التخلى عن فتوحاته. وفى الحرب الثانية (٨٣-٨١ ق.م) هزم الرومان. وفى الحرب الثالثة هزم لوكلوس ثم بومبى خلال الفترة من ٧٤-٦٣ ق.م. وقد إنسحب الى شبه جزيرة القرم حيث تعرض لتمرد إبنه فارناكس، وقد قتل بأمر من إبنه. كان أخطر أعداء روما فى الشرق طوال فترة حكمه.

بصراع داخلى بين القادة الرومان. وقد أدى هذا لعدم وجود فرصة لبلورة نظام إدارة مخطط ومدروس يمارسونه فى المناطق التى خضعت لسيطرتهم.

يضاف الى هذا أن مناطق الشرق التى إحتلها الرومان كانت مواطن حضارات قديمة راقية بزت ما عند الرومان وكان لدى أغلب هذه المناطق أنظمة إدارية متكاملة من عصور سابقة.

وهكذا وجد الرومان أنفسهم مدفوعين الى الأخذ بأساليب الادارة فى تلك الولايات ولم يسعوا الى تغيير نظمها الادارية الا بالقدر الذى يوجه هذه الادارة لمصلحتهم (١).

إن العناصر التى حكمت سياسة روما فى الولايات تركزت على تحقيق هدفين ... الأول هو تحقيق أمن الامبراطورية والثانى تحقيق أكبر عائد من الولايات بما يعود على روما بالخير العميم وهكذا نجد حاكم الولاية لايزيد اختصاصه فوق الناحيتين المذكورتين عن الاشراف العام على المسائل المحلية. وعقد مجلس قضائى للفصل فى المسائل ذات الأهمية الخاصة. وماعدا ذلك من شئون الادارة فقد تركه الرومان للوطنيين سواء فيما يخص عاداتهم أو معتقداتهم أو لغاتهم.

---

(١) M. Carry & H. H. Scullard, A History of Rome, London, 1979, P.. 331. FF.

وملاك الأراضى الكبار الممثلين فى السنهدرين يتعاونون مع الرومان. ولكن عامة اليهود الذين ايقظت ثورة المكابيين عصبيتهم ضد غير اليهود رأوا أن يوم الخلاص من الحكم الأجنبى صار قريبا. وساد الاعتقاد بأن المسيح المنتظر قادم ليحررهم ورأى البعض أن يهيئوا لقدومه. بعد ضم يهودية للرومان فى عام ٦ ميلادية بقليل قامت مقاومة مسلحة ضد المسئولين الرومان عن التعداد. وهاجمت عصابات السيكارى أو أصحاب السكاكين الذين كانوا قد هربوا الى الصحراء تحت ضغط القوات الرومانية هاجمت البلاد باستمرار. وفى عام ٤٠م حدث تراجع رومانى مفاجئ عن سياسة التسامح الدينى الذى إتبعه أغسطس بأمر من كاليجولا الذى أمر اليهود أن يقيموا تمثالا له فى معبد أورشليم. وقد أدى هذا الى ثورة عامة فى فلسطين. تم تحذير الامبراطور من الثورة التى يمكن أن تحدث وكان أصحاب التحذير بترونيوس P.petronius حاكم سوريا وكذلك جوليوس أجريبا (هيرود أجريبا) حفيد هيرود الكبير والمقرب للبلاط الرومانى. فصرف كاليجولا النظر عن طلبه ولكنه فجأة عاد عن وعده وأمر باقامة التمثال كما أمر باعدام بترونيوس. ولكن وفاة الامبراطور بعد ذلك بوقت قصير أنقذت بترونيس من الموت ومنعت اندلاع ثورة فى فلسطين. ولكن مجرد محاولة فرض عبادة الامبراطور هناك دعم موقف المتعصبين ضد الرومان. وانتهت خطط كاليجولا لإقامة أجريبا على عرش جده، بالموت

المفاجئ للملك الجديد ٤٤.

ونظرا لتواضع القيمة العسكرية لليهودية فقد إسند أمرها الى بروكورانور Procurator، تحت الاشراف العام لقائد سوريا Legatus. لم يوفق الأباطرة فى اختيار البروكوراتوريس فان الاضطراب المالى الذى عانت منه المنطقة وعلى وجه الخصوص خلال فترة أنطونيوس فيلكس Antonius Felix أخى بالاس مترق كلوديوس (٥٢-٦٠) أعادت الى الأذهان الأيام السوداء على عهد الجمهورية. ولكن الخطأ الأكبر للحكام الرومان كانت الضراوة التى يواجهون بها التمردات المتكررة. فمثلا Pontius Pilat (٢٦-٣٦) قام بسلسة من الغارات ختمها بمذبحة لبعض السامريين بغير داع على جبل Gerizim : صحيح أنه عزل واعيد لروما بأمر من قائد سوريا Vitetius ولكن فى أحيان اخرى لم يكن مرتكبو مثل هذه الأحداث يحاسبون. ومن ثم كان على الحكام أن يواجهوا تمردات سياسية واجتماعية ودينية على جبهة عريضة. وعلى كل فإن هذه المذابح التى قام بها الرومان اسهمت أكثر من أى شئ آخر فى إيصال البلاد للحرب. فى عام ٦٦م حدثت مذبحة من الوثنيين ضد اليهود فى قيصرية، وكان ذلك بموافقة من البروكوراتور Gessius Florus. وقد ادت هذه المذبحة الى قيام ثورة فى أورشليم حيث أصبحت اليد العليا للمتعصبين Zealot. Florus بدى عاجزا، كما أن قائد سوريا Cestius Gallus حضر على

رأس جيش من ٢٠ ألف رجل وبدأ فى محاصرة قلعة أورشليم. ولكنه فى نوبة عصبية مع إقتراب الشتاء أمر برفع الحصار ثم قام بتقهقر مأساوى من فلسطين. انتشرت الثورة فى كل يهودية بعد هذه الهزلة وإمتدت الى الجليل وأجزاء عبر الاردن، وأصبحت مدن فلسطينية عديدة ميادين قتال، وفيها قام اليهود والوثنيون بذبح بعضهم البعض كلما كانت لاحدهم الغلبة فى مكان. جمعت الثورة المعتدلين اليهود مع المتعصبين ونظمت القوات الثائرة ودربت.

أسرع نيرون بأرسال جيش تحت إمرة فلافيوس فسبيان Flavius Vaspasianus وهذا لم يكن ضابطا محبوبا من البلاط ولكنه كان صاحب تاريخ عسكرى جيد. كما أنه كان بسبب أصله الغامض يعتبر رجلا مأمون الجانب لكى يترك على رأس جيش كبير.

استطاع فسبيان بقراته التى زادت عن ٥٠ ألف جندى أن يخضع الجليل فى عام ٦٧ وأراض عبر الاردن فى ٦٨. وبذلك حصر الثورة فى أراضى يهودية الأصلية. عند ذلك الوقت أوقف فسبيان عملياته العسكرية بإدعاء أن نيرون، الذى أخذ منه أوامره، قد عزل ولكن اليهود لم يكونوا قادرين على الاستفادة من المهلة المتاحة. حيث لم يصمد الاتحاد بين اليهود طويلا و سرعان ما حدثت نزاعات بين المعتدلين و المتعصبين فى أورشليم ، فأصبحت مقاومة المعتدلين فاترة . إن وجهة نظر اليهود فى هذه

الحرب وصلتنا من خلال كتابات يوسف اليهودى الذى كان ضابطا صغيرا لعب دورا فى المراحل الأولى للحرب ، ثم إستسلم لفسبسيان فى عام ٦٧ . وقد كرفئ بمنحه الجنسية الرومانية . ومع نهاية حكم نيرون صار للمتعصبين اليد العليا فى أورشليم . ولكن فلسطين ككل كانت قد أستعادها الرومان(١).

ان تعصب كل من اليهود والوثنيين كان السبب الأصلى لأندلاع حرب اليهود وقد وقعت مصادمات بين الطائفتين فى مختلف المدن فى الشرق فى مناسبات متعددة حيث كان المسترطنون اليهود يقعون فى تنافس مع السكان المتأغرقين. وكانت هذه التناقضات تبدأ عادة بمحاولة المتأغرقين إنكار الحقوق التى أقرها الملوك الهلينستيين لليهود واكدها قيصر ثم أغسطس. لقد كان مركز الصراع الأساسى فى الاسكندرية، حيث كان هناك وجود يهودى كثيف كونوا طائفة لها مجلس ورئيس. ومع ذلك كانوا يطالبون بحقوق المواطنة الاسكندرية على قدم المساواة مع الاغريق. والأخيرون كانوا يحقدون على اليهود، نظرا لحرمانهم من وجود مجلس شورى وهكذا نما شعور بين السكندريين مضاد للرومان قاده إيزودور ولامبرن. وكان عليهما أن يواجها الموت فى سبيل وطنهما وقد خلدت قصة هذه المواجهات فى أعمال أدبية شعبية ذاعت وانتشرت ويطلق عليها أعمال

---

(١) Josephus,The Jewish War,Penguin BKS,England,1978, .1, FF.

الشهداء الرشنيين. فى عام ٣٨م أستغل الاغريق الفرصة وأعلنوا عدم ولاء اليهود فى الاسكندرية عندما رفض هؤلاء أن يعبدوا كاليجولا كما أمر، وقام حاكم مصر أفيليوس فلاكوس Avilius Flaccus ، بتأييد هجمات قام بها الأغريق ضد السكان اليهود. بعد الأحداث استدعى فلاكوس وقتل بينما أرسل كل من اليهود والأغريق فى الاسكندرية مندوبين الى كاليجولا. ونظرا لأن اليهود كان يقودهم الفيلسوف فيلو. بينما كان يقود الوفد السكندرى إيزودور. صرف كاليجولا الوفد اليهودى بعد أن أوضح أن عليهم أن يقدموا تضحيات من أجله لا أن يضحوا له. وعند إعتلائه للعرش فإن كلاوديوس أصدر منشورين، واحد يؤكد فيه الامتيازات التى أقرها لليهود الاسكندريين، وفى الآخر لليهود فى أنحاء العالم. ومع ذلك فقد ثارت مشاكل فى الاسكندرية فى عام ٤١. وخطابه فى الرد على الفريقين يظهر منه أنه لم ينتصر لأحدهما تماما وحذرهما كلاهما بأن عليهم أن يحفظوا السلام فى الاسكندرية. "والا فإننى ساكون مضطرا أن أبين له كيف يكون الأمير الحليم عندما يغضب" لقد أمر الأغريق أن يكونوا رحماء باليهود وأمر اليهود أن يتوقفوا "عن صنع الرباء العام فى العالم(١)". وفى عام ٥٢ قدم وفد إغريقى من الاسكندرية تقريراً ضد أجريبا الثانى

---

(١) عبد اللطيف احمد على ، مصر والأمبراطورية الرومانية فى ضوء الأوراق البردية، القاهرة.

أمام كلوديوس، ولكنهم فشلوا فى الايقاع به وأعدم إيزودور ولامبرن بعد أن أهانا الامبراطور. وقد استغل يهود الاسكندرية فى عام ٦٦م قيام الثورة فى فلسطين لكن يقوموا بعنف ضد الأغريق ولكن حاكم مصر تيبيريوس الاسكندر ضرب المعتدين بقسوة. وبعيداً عن تلك المحاولة الفاشلة فى الاسكندرية فإن ثورة اليهود لم تنتشر فى أنحاء أخرى من العالم...

أرمينيا وبارثيا :

قام الرومان فى آسيا الصغرى بعدد من الحملات الثأرية ضد القبائل المتمردة فى جبال طوروس، ولكن حجم هذه الحملات تقلص حتى أصبحت فى حجم الأعمال البوليسية. وتم ضم ساحل لوكيا وبامفيليا فى ولاية واحدة فى عام ٤٣ تسهيلا للدفاع عن المرتفعات الجنوبية. ولكن العمل الأكثر أهمية كان إخضاع تيبيريوس لمملكة كبادوكيا فى عام ١٧م ثم تحويلها الى ولاية رومانية وذلك لكن يقوى الحدود الرومانية على طول الفرات. اما الكوماجين فى شمال سوريا فكانوا يعيشون فترة قلق ولذلك بمجرد موت ملكهم فى عام ١٧م ضم تيبيريوس بلادهم. وفى عهد كاليجولا أعادها للملك أنطيوخس الرابع ثم بعد ذلك عزله، ولكن أنطيوخس عاد مرة أخرى الى عرشه على يد كلوديوس ٤١ وظل يحكم حتى عزله فسبيان عام ٧٢م.

وبالنسبة للعلاقات مع أرمينيا وبارثيا فإن خلفاء أغسطس ساروا

على نهجه فى فرض السيادة الرومانية بأقل قدر ممكن من الجهد العسكرى. ولكن تراخى الرومان وتضاءل حذرهم ومع ذلك فقد ساعدهم التردد الذى ميز حركة الملوك البارثيين. ولذلك فما من مرة فقد فيها الرومان نفوذهم على الفرات الا وكان ذلك ينتهى دائما باستعادتهم له. وعند موت أغسطس كان الحاكم البارثى أرتابانوس Artabanus لم يكن قد دعم مكانته جيداً. أما أرمينيا فكانت فى حالة من الفوضى. ومع ذلك فإن تيبيريوس لم يتحرك حتى عام ١٨، عندما دعى نبلاء أرمينيا أميراً من واحدة من الأسر المالكة الصغيرة فى آسيا الصغرى لكى يصبح ملكا عليهم. عندئذ عين الإمبراطور ابن أخيه جرمانيكوس Germanicus، الذى كان قد أرسل حديثا فى جولة تفقدية فى الولايات الشرقية، ليمنح التاج لمرشح الأرمينيين فى أرتاكساتا Artaxata (١). وهو احتفال شارك تيبيريوس نفسه فى مثيل له قبل ذلك بأربعين سنة فى ظروف مشابهة تماما. الملك الجديد أرتاكسيس Artaxes ، حكم بدون إنقطاع حتى عام ٣٥م. وعند موته فإن الملك البارثى أرتابانوس، الذى أذعن لتتويج أرتاكسيس، أراد أن يسبق تيبيريوس فحرض أحد أبنائه للاستيلاءعلى أرمينيا لنفسه. ولكن الداهية الرومانى تخلص من هذا المأزق بذكاء. فقد حرض مغامر إيبيرى يدعى مثيريداتس فهزم القوات البارثيه وطردها

---

(١)عاصمة أرمينيا

خارج أرمينيا ولمن العرش لنفسه. كما حرض مطالب بعرش بارثيا يدعى تيريداتس Tiridates إستطاع أن يطرد أرتابانوس مؤقتا من كل أقاليمه الغربية. حقيقه أن الاخير إستعاد الأقاليم المفقودة بدون مناوءة من جانب الرومان، ولكنه لم يقم بأى محاولة لطرد مثريداتس من أرمينيا.

ضاعت ثمار سياسة تيبيريوس الحاذقة بسبب سوء تصرف الإمبراطورين التاليين. فكاليجولا قدم أرمينيا هدية لأرتابانوس باقدامه على استدعاء مثيريداتس الى روما وحبسه هناك بدون سبب واضح ومن ثم إستولى أرتابانوس على البلاد دون مقاومة. أما كلوديوس فقد نجح فى البداية فى إعادة مثريداتيس بمعونة قوة عسكرية رومانية صغيرة . تم ذلك عندما كان جوتارزيس Gotarzes خليفة أرتابانوس مشغولا بالصراعات الأسرية فى وطنه . ولكن فى عام ٥٢ قام ابن اخ مثريداتس المدعو راداميستوس Radamistus وهو مغامر أيبيرى هاجم أرمينيا وقتل عمه غدراً، وقد ترك الرومان مثريداتس يقع فى الكمين دون أى عون كما لم تصله أية معونة من الحكام الرومان المجاورين . ان تجاهل روما لما نال الملك العميل لها ساعد الملك البارثى الجديد فولوجيسس Vologeses فى كسب الموقف لصالحه فساعد الأرمينيين فى التخلص من الدخيل راداميستوس كما أرضاهم بأن جعل تيريداتس اخاه محله (٥٢-٥٤).

وعند إعتلاء نيرون للعرش فإن حاكم كبادوكيا الرومانى يوليوس باليليجريوس Iulius Paeligrius الذى كان ممثلا بصورة رئيسية عن فقد أرمينيا تم استبداله فى عام ٥٥ بضابط يدعى Domitius Corbulo وكان قد خدم بامتياز على جبهة الرين. كانت تعليمات الحاكم الجديد تقضى بإجراء مفاوضات مع فولوجيس على أساس إعتراف الرومان بتيريداتس بشرط أن يتسلم تاجه من ممثل نيرون. وحذره بأن رفض تيريداتس لهذه الاتفاقية سيؤدى بكوربولو لغزو أرمينيا بجيش كبير. وبعد عام كامل من التدريبات القاسية للتخلص من حالة الاسترخاء التى كانت تسود القوات الرومانية على الجبهات الشرقية، قام القائد الرومانى بعبور جزء لهضبة Erzerum فى وادى Araxas . ثم قام بحملتين سريعتين إحتل خلالهما وحرق ارتاكساتا ثم أعاد مسيرة Lucullus عبر الأراضى الأرمينية العليا الى Tigranocerta (٥٨-٥٩) ومن هذه القاعدة أخضع باسلوب منظم كل أرمينيا خلال الصيف التالى، حتى أن تيريداتس -الذى كان فى نفس الوقت قد فقد دعم أخيه بسبب ثورة على الحدود الشرقية لبارثيا- أخلى مملكته كلية. وفى عام ٦٠ لجأ كوربولو لحل المسألة الأرمينية مؤقتا بتتويج أمير يدعى تجرانيس من الأسرة المالكة السابقة فى كبادوكيا ملكا على أرمينيا.

فى العام التالى أثار الحاكم الجديد لأرمينيا أثار فولوجيس

بقيامه بغارة على ميزوبوتاميا. عندئذ فإن الملك البارثي الذي كان قد انتهى من مشاكله أخذ بالثار من تجرانيس بأن حبسه في Tigranocerta . وبالنسبة للموقف الروماني ردكوربولو الذي كان قد نقل الى ولاية سوريا الاكثر أهمية رد بعزله من عرش أرمينيا. ووافق على إعادة تيريداتس بشرط الاعترافِ بالسيادة الرومانية. ورغم قبول تيريداتس لهذه الشروط الا أنها رفضت من جانب نيرون نفسه، حدث صدام مباشر بين الرومان والبارثيين. عند بداية الحرب بقي كوربولو ساكنا في سوريا. بينما سعى حاكم كبادوكيا الجديد L,Caesennius Paetus, الى منافسة غارات سلفه في أرمينيا .(٦٢) تقدم بايترس بغير حذر في جنوب أرمينيا بقوة غير كافية مما جعله يفاجأ بفولوجيس عند Rhandeia فاضطر للتقهقر وفي غياب المساعدة الفورية من سوريا إضطر للانسحاب. واضطر للتسليم واخلى الرومان أرمينيا. وكان ملكها في ذلك الوقت تيريداتس (٦٢-٦٣).

وجاء الوقت لحساب بايترس في روما، بينما كوربولو تلقى ترقية لايستحقها بأن أصبح قائدا عاما على كل قوات جبهة الفرات. وبقوة جيش مدعم من أوربا وصل عدده الى ٥٠ الف جندي انهى غزوه لأرمينيا عام ٦٤م. إن التصميم الروماني أدى الى عرض بالسلام قدمه فولوجيس كما أن تيريداتس وافق على أن يتقلد تاج أرمينيا من الامبراطور شخصيا. وفي عام ٦٥-٦٦ أبحر الملك الأرمني الى روما حيث استقبله نيرون وتوجه

ملكا على أرمينيا. وقد ظلت الصداقة التي أقيمت في ذلك الوقت بين روما والملكتين الشرقيتين قائمة لمدة نصف قرن قادم رغم بعض الاضطرابات من آن لآخر.

وكان نيرون في عام ٦٤ قد سعى الى تأمين حدود أرمينيا بتحويل مملكة برنتس الى ولاية ضمن جلاتيا. وبهذه الحدود صارت الحكومة الرومانية صاحبة سيطرة على البحر الأسود وفي نهاية أيام نيرون كان يأمل في تحقيق حلم بومبي بالوصول بالحدود الرومانية الى بحر قزوين ولكن هذا المشروع لم يتحقق أبدا في حياته ثم أهمل بعد وفاته. والملفت للنظر أنه بعد خمسين سنة من المواجهة العسكرية على الجبهة الأرمينية والبارثية بقيت الحدود كما هي تقريبا.

ولكن من عهد نيرون يلاحظ "أن الحامية الرومانية على طول جبهة الفرات كان تزداد عدداً على حساب أقسام الرين والدانوب.."(١)

الشرق في عصر الأباطرة الصالحين :

أرمينيـــا و بارثيـــا:

ضم تراجان العديد من المناطق التي تقع على الحدود الشرقية للامبراطورية. وكانت إمارة عبر الاردن التي حكمها هيرود أجريبا الثاني

---

(١) M . Cary & H . H . Scullard , OP . Cit P . 370.

لمدة خمسين عاما تقريبا هى ولاية حمص Emesa قد ضمت بالفعل الى سوريا على يد دومتيان(حوالى ٩٢). أما ترجان فقد قام بعمل أكثر أهمية فى عام ١٠٥م عندما إستولى على مملكة العرب النبطيين الذين كان مركزهم حاكما على طرق تجارة القوافل القادمة من الصحراء العربية الى البحر الأحمر والساحل الفلسطينى. وكان هذا الموقع قد جعل للمملكة أهمية تجارية كبيرة. تحولت المملكة النبطية الى ولاية باسم "الولاية العربية" ضمت الولاية الجديدة منطقة النقب وربما سيناء ولكن أقليم دمشق فى نهاية حدودها الشمالية ألحق بولاية سوريا. من هذه المدينة أنشئ طريق عليه تحصينات يمر عبر بصرى Bostra (التى كانت قد صارت مقر قيادة فرقة عسكرية رومانية) ثم البتراء الى أيله على الخليج العقبة.

وقرب نهاية حكم تراجان إجتاز هذا الامبراطور الحدود الرومانية على نهر الفرات وهى الحدود التى أقامها أغسطس ورفض نيرون تجاوزها. وكان هذا تغيرا جذريا فى السياسة الرومانية فى الشرق حدث بسبب استفزاز الملك البارثى خسرو Chosroes للامبراطور. فخلال حكم باكورس Pacorus الأخ الأكبر لخسرو قبل تراجان إلباس التاج الأرمينى الى الابن الثانى لبارگورس المدعو اكسيدارس Axidares، باعتبار أن الابن الأكبر بارثاماسيرس Parthamasiris سوف يخلف أباه باكورس على عرش بارثيا. ولكن بعد وفاة الملك تخطى النبلاء البارثيين بارثاماسيرس واختاروا

عمه خسرو ليعتلي عرش بارثيا (١١٢) وحتى يأمن جانب ابن أخيه قام خسرو الحاكم البارثي الجديد بتحريض بارثاماسيرس للإستيلاء على أرمينيا لنفسه (١١٣). ولكن رغم إستيلاء بارثاماسيرس على أرمينيا الا أنه فشل في طرد اكسيدارس من المناطق النائية من المملكة. وفي نفس الوقت تعرض خسرو لهجوم مطالب بالعرش في الأقاليم الشرقية من بارثيا. قبل تراجان التحدي وحرك كل قواته الموجودة في الشرق عندئذ قدم بارثاماسيرس عرضا بأن يتولى حكم أرمينيا بنفس الشروط التي إعتلى تيريداتس على أساسها العرش أيام نيرون. لم يعط الامبراطور الروماني رداً فورياً، ولكنه دعى الملك الأرميني للقائه بالقرب من Erzerum. ورغم تأكيدات الملك بولائه للامبراطورية الرومانية. الا أن تراجان أعلن عزل بارثاماسيرس كما أعلن تحويل أرمينيا الى ولاية رومانية(١١٤).

كان ضم أرمينيا فيما يبدو الهدف الأصلي لتراجان. وكان دافع تأمين الحدود الشرقية ضد القبائل القوقازية، بما فيها Alans، الذين كانوا يتحركون جنوبا، ولكن ضمه لأرمينيا فرض عليه ضم ميزوبوتاميا أيضا تأمينا لخط الحدود الجديد للامبراطورية في الشرق وحماية لخطوط التجارة الرومانية عبر هذه المنطقة.

فاستأنف تراجان في عام ١١٥م توغله داخل الأراضي البارثية. واستولى على Nisibis, Singara، واستولى على شمالي ميزوبوتاميا،

ولكن خسرو قد ترك حكام هذه المناطق بغير مساعدة، فاستسلموا فوراً أو بعد مقاومة ضعيفة وهكذا صارت ميزوبوتاميا ولاية رومانية. قضى تراجان شتاء عام ١١٥-١١٦م في اعداد أسطول لعبور الفرات الأوسط ثم تحركت القوات الرومانية في ميديا التي أصبحت ولاية آشور الرومانية، عندئذ قسم جيشه الى قسمين سارا بحذاء النهرين ولكنهما اتحدا من جديد للقيام بهجوم على العاصمة الشتوية لخسرو كتسيفون Ctesiphon على نهر دجلة في مقابل سليوكيا. وعند إقتراب الرومان هرب الملك البارثي. وصار في حكم الواقع أن بارثيا صارت إقليما رومانيا. بعد ذلك أخضع الامبراطور كل الأرض على النهرين، وأتم تقدمه بالابحار جنوبا في دجلة الى الخليج. ولكن قبل أن تصبح مكاسبه مؤمنة. قامت الثورات ضده هنا وهناك فثارت سليوكيا ومدن أخرى. كما قامت ثورة خطيرة في يهودية ويبدو من المؤكد أنها ثورة أعد لها من قبل بالتعاون مع الملك البارثي، شكلت بغير شك عبئ إضافي على مؤخرة القوات الرومانية. وكان ذلك في عام ١١٧م. وفي محاولة لمواجهة الخطر أرسل تراجان قواده ضد الثائرين. وفي هذه الظروف تم تتويج بارثاماسباتس Parthamaspates، إبن خسرو ملكا على بارثيا، إنكاراً للادعاءات الرومانية بسقوط بارثيا. وبمجرد انسحاب الرومان طرد خسرو ابنه واستعاد العرش. وبعد محاولة يائسة لاخضاع هاترا بالحصار إستعاد تراجان الفرات. ويذكر الفضل للقائد الموريتاني لوسيوس كريتوس

Lusius Quietus، الذى تولى أمر الانسحاب من ميزوبوتاميا قاد تراجان قواته الى أنطيوخ (١١٧)، ولكن المرض والموت لحقاه.

إن ما ضمه تراجان على الأقل إنهى المسألة الأرمينية التى شغلت روما منذ زمن لوكوللس وبومبى كما أنه حرم الملك البارثى من بلدين متطورين ومن ثم حرمه من دخلهما. ولكن الثمن الذى دفعه الإمبراطور مقابل ولاياته الجديدة كان باهظا. فمن أجل تكتيل القوات ضد أرمينيا وبارثيا إضطر الامبراطور الى إضعاف الجبهات الأخرى الى حد أدنى من حد الأمان. بالاضافة الى ذلك فإن الحدود الجديدة فى الشرق لم تتبع أى حد طبيعى يصلح للدفاع عنه وتطلب وجود حامية دائمه أكبر عددا للدفاع عن أكثر من وادى الفرات.

لقد كان العمل الأول لهادريان هو الانسحاب من كل إنتصارات سلفه، حتى أنه سمح لخسرو بأن يستولى على أقاليمه المفقودة ونقل Parthamaspatesالى Osrhoene. وفى عام ١٢٩ أعاد هادريان الى خسرو إبنته، التى كان تراجان قد أسرها ولكنه لم يرد العرش الأرمينى. إن إتفاقيته التى أتيحت نفس خطوط معاهدة نيرون مع فولوجيسس كان لها نفس الاستمرار. صحيح أنها تعرضت لبعض التجاوزات مثلما حدث فى ١٤٢ ومرة أخرى فى ١٥٥. عندما غزا ملك بارثى جديد يدعى فولوجيسس الثالث Vologeses غزا أرمينيا لكى يقبض على أحد أقاربه،

ولكنه انسحب بقواته بعد تلقيه لخطاب تهديد. وفى ١٦١م عاد فرلرجيس الى الميدان ونصب أميرا يدعى باكورس ملكا على أرمينيا بعد أن حقق انتصارين على حاكمى كبادوكيا وسوريا، اللذين إندفعا لملاقاته بدون قوات كافية. واذا كان الملك البارثى قد رغب عند هذه المرحلة إقامة السلام مع ماركوس أوريليوس على أسس اتفاقية نيرون فربما إستطاع أن يفرض باكورس ملكا على أرمينيا، فقد كان الامبراطور الرومانى غير راغب فى رفع السلاح فى وجهه، ولكنه رفض التسوية. ولذلك أرسل الامبراطور فى عام ١٦٢-١٦٤ جيشا رومانيا كبيراً تحت القيادة الشخصية لشريك الامبراطور فيروس Verus. ولكنه فى الحقيقة كان بقيادة أنيديوس كاسيوس و Statius Priscus. إجتاحا أرمينيا وميزوبرتاميا بنفس طريقة تراجان. فى عام ١٦٣ أستولى برسكوس على Artaxata عاصمة أرمينيا وأحرقها وأتبعه كاسيوس بمعركة ناجحة عند دورا يوروبوس على الفرات (ربما ١٦٥) ثم إنضم الجيشان وتقدما فى إتجاة دجلة. وبالقرات المتحدة أستولى كاسيوس على كل من المدينتين التوأم سليوكيا وكتسيفون، ودمرهما (١٦٥-١٦٦). واكمل حملته بغارة على ميديا وكانت تمثل الشرق الأبعد بالنسبة للرومان (١٦٦) وتم إبرام السلام. وافق بمقتضاه فرلرجيس على ترك أرمينيا فى أيدى أمير آخر يدعى سوهايموس Sohaemus، الذى كان يسكن فى روما ووصل الى مرتبة السناتور. وفى نفس الوقت تخلى

عن المملكة الاقطاعية فى Osrhoene فى غرب ميزوبوتاميا التى اصبحت تحت الحمايه الرومانية ويدافع عنها الجنرد المسرحين من Carrhae. وبهذا الاتفاق فإن ماركوس أوريليوس كان يتتبع عموما خط الفرات وعدل حدوده بتطع الثنية فى الوسط. وبعد ذلك، ولكن يحمى السلام عين أفيديوس كاسيوس قائدا أعلى على كل الشرق، بما فيها مصر. إن حروب القرن الثانى أثبتت أن البارثيين كان يمكن أن يحققوا بعض انتصارات مبهرة على الرومان، ولكنهم لم يكونوا أندادا لهم فى الصراع الطويل. إن الانتصارات التى حققها الرومان ضد البارثيين كانت باهظة التكاليف ذلك لأن الجنرد عادوا حاملين ميكروب أخطر الأوبئة فى التاريخ الرومانى.

تم ضم إمارة عبر الاردن على يد تراجان وحافظ عليها خلفاؤه. وأيام هاديان وأنطونيوس ثم إنشاء طريق محصن جديد يتخطى حدود الليميس الخاصة بتراجان. وهناك على الحدود الشمالية لولاية كبادوكيا الذى تم توسيع مساحتها فان قبائل Alans تلقت خدمات عبر ممرات القرقاز بدون صعوبة كبيرة على أيدى الولاة الرومان.

يهودية :

إن قرار هادريان بالانسحاب من أرمينيا وميزوبوتاميا تأثر بغير شك بالثورات التى انفجرت فى مؤخرة جيش تراجان عام ١١٥. هذه الثورات كانت نتيجة الخطة المدبرة التى عاون فيها يهود الشتات يهود

فلسطين. ومن الواضح أن هذه الثورة فاجئت تراجان ولذلك ليس من الممكن تحديد مدى الحزن الذى سببه اليهود لامبراطورهم. وبالنسبة ليهود الاسكندرية فان الامبراطور كان ميالا لتحريض الاغريق الوثنيين ضدهم. ومن الممكن أن ضم مملكة البنط كان له تأثير سلبى فى تحويل جزء من التجارة العربية من فلسطين الى غزة أو دمشق، ولكن السبب الرئيسى للثورة مرتبط بغير شك بالامال المسيحية التى بقيت حية فى المدارس Rabbinical schools بعد حرب اليهود الأولى. كان الانسحاب الجزئى للحاميات الرومانية من فلسطين من أجل الحرب ضد البارثيين هو الفرصة المواتية للثورة ولايستبعد أن خسرو الذى من المؤكد أنه استخدم المواطنين اليهود فى بابل كعملاء للتحريض على الثورة فى ارض الرافدين، يمكن أن يكون قد وظفهم لكى يربطوا بينه والثورة العامة لليهود فى خلف تراجان. تم إختيار توقيت جيد للثورة لدرجة أن الثوار أصبح لهم اليد العليا فى قبرص وقورنية كما شغلت باقى القوات الرومانية فى فلسطين ومصر، وأينما تحققت للثوار الأغلبية فإنهم قاموا بمذابح ضد الوثنيين. ولكن نهاية الحرب البارثية فى عام ١١٦ جعلت تراجان حرا لكى يواجه الثوار اليهود. وبينما كان Lusius Quietus قد إستعاد ميزوبوتاميا وهدأ فلسطين فإن ماركيوس تربو Q.Marcius Turbo طارد الثورة فى مصر وقورنية وحرض السكان الاغريق على القيام بمذابح ضدهم. ان كل أعمال

التمرد خارج فلسطين قد اخمدت حتى أن اليهود فى الشتات توقفوا عن إحداث شغب ذات تأثير بالنسبة للحكومة الرومانية من ذلك الوقت.

أما عن الحرب فى فلسطين نفسها فإننا لانعرف شيئا عن الفترة الأخيرة من عصر تراجان ولكن أعداداً من اليهود استمروا يحاولون المقاومة أيام هادريان، وكان ذلك نتيجة استفزاز مباشر من جانب الرومان. ففى الفترة المبكرة من حكمه كان هذا الأمبراطور يدعم بقوة حقوق اليهود فى الاسكندرية، ولكن خلال جولته الثانية فى الولايات الشرقية اعتقد بصلاحية العنف لحل المشكلة اليهودية وهى سياسة جربها الملك السليوقى أنطيوخس الرابع قبل ثلاثة قرون وكانت لها نتائج وخيمة. أصدر هادريان فى عام ١٣١ قراراً بتحريم الختان. كما أنشأ مستعمرة رومانية Aelia Capitolina فى أورشليم، وهو عمل شمل إقامة معبد لجوبتر الكابتولينى على موقع الهيكل. ثار اليهود فى فلسطين للتعدى على الهيكل وقاموا تحت قيادة Bar Cosiba (Cochba) بأعمال انتحارية بهدف إفناء الرومان من خلال حرب العصابات (١٣١-١٣٤). ولكن القوات الرومانية المدعمة بفصائل من المناطق الأخرى، استعادت فلسطين بنفس الطريقة التى اتبعها فسبسيان. فقد قام القائد الرومانى يوليوس سيفروس C.Iulius Severus الذى إستدعى من بريطانيا لتولى القيادة، بعزل جيوب المقاومة ومحاصرتها حتى تنتهى مقاومتها. هدئ كل الأقليم فى العام التالى. والحقيقة أن الحرب

اليهودية الثانية كانت فى واقعها صيد للرجال أفنى فيها الرومان عددا كبيرا من سكان فلسطين. وإن كان التقرير الذى يذكر بأنهم دمروا ٥٠ قلعة و٩٨٥ قرية، و٥٨٠ ألف رجلا (بالاضافه لمن ماتوا بالمجاعة أو بالوباء) يعتبر مبالغة من صاحبه (١). إن إعادة تعمير فلسطين بالسكان التى خططها هادريان بدأت بمستعمرة أيلة كابتولينا واستمرت بتوطين سكان وثنيين من البلاد أو الاراضى المجاورة. وقد منع اليهود الباقيين من زيارة أورشليم الا مرة واحدة فى السنة حتى اسم يهودية غير الى سوريا الفلسطينية وعسكرت فيها فرقتان رومانيتان. ولكن على عهد أنطونينوس بيوس بدأت مرجة الاضطهاد تخف وتم الاعتراف بالقانون اليهودى والذين ولدوا يهودا كان لايضايقون فى ممارسة ديانتهم، وسمح للهياكل والمدارس بأن تحتفظ بتقاليدها الوطنية حية. وأخيرا صار هناك احترام متبادل Madus Vivendi يحفظ لكل فريق حق الموافقة والاختلاف فى أفكارهم. على الرغم من بقاء اليهود بدون دولة أو وطن(٢).

---

(١) أرجو ملاحظة أن عدد سكان مصر كلها كان سبعة ملايين نسمة تقريبا ومن ثم لايمكن تصور أن فئة واحدة (اليهود) من سكان فلسطين يمكن أن يبلغ ضحاياها فى حرب واحدة كل الرقم المذكور

(٢) M . Cary & H . H . Scullard , op . cit . Basin .

٣- الحياة الاجتماعية والاقتصادية في الشرق خلال عصر الامبراطورية الرومانية

عندما سقطت الدول الهلينستية في أيدى الرومان لم يستحدث الرومان نظما خاصة لحكمها فبقيت الولايات ينظر اليها كضياع للشعب الرومانى. وكان من العسير على مواطنى هذه الولايات أن يحصلوا على الحقوق الرومانية. وإذا كانت مدن هذه الولايات قد نالت عناية من جانب الرومان فقد كان هذا من منطلق السعى الى ترقيتها الى مستوى أعلى مما كانت فيه لا منحها حقوق المدينة الرومانية.

ونظرة الى الأساليب التى إتبعها أغسطس فى حكم الشرق توضح الحقائق السابقة فنظم الادارة بقيت على ماهى عليه مع إدخال بعض التعديلات. والولايات بقيت تحت حكم رجال السناتو باشراف من الامبراطور أوبتكليف منه والجديد هنا أن الولايات لم تعد تحت حكم طبقة السناتو وانما رجال السناتو كافراد. وكان هذا رأس تعديلات حققت عدالة اكثر فإنتهى عصر المرابين الرومان وإستقر نظام الضرائب المباشرة تدريجيا. وكان إستقرار هذا النظام بداية لانهيار جمعيات جباة الضرائب من الرومان الذين إستغلوا الولايات استغلالا بشعا على العهد الجمهورى.

لم تخفض الضرائب بل زيد بعضها ولكن تحسن أسلوب جبايتها

ادى الى تضاؤل القلاقل فى الولايات. وكان وجود المجالس المحلية يعطى السكان أملا فى رفع شكاياتهم فى الولايات الى مسامع الامبراطور فى روما - باستثناء المدن المصرية.

مدن الشرق المتأغرقة:

تمتعت المدن فى الولايات الشرقية بحرية تسيير شئونها المحلية وربما وصلت هذه الحرية الى درجة أعلى مما كانت عليه فى العصر الهلينستى. ولقد راعى أغسطس الظروف الاجتماعية فى تلك الولايات فأبقى على أوضاعها دون تغيير. وقد تركت روما مقاليد الحكم فى المدن لمواطنيها الأغنياء ينتخبون سنويا كموظفين سامين بالاضافة الى وجود مجلس (بولى) وقد سعدت هذه المدن بهذا المدى من الحرية الذى أتاحته السلطات الرومانية لها. وبالنسبة لروما فإن كل ما كان يهمها هو أن يسود الهدوء والنظام هذه المدن.

إن الاضافة الحقيقية بالنسبة لسياسة أغسطس تجاه ولايات الشرق كانت تشجيعه لتحضير المناطق الريفية والبرية. فنشأت دويلات ومدن جديدة على أنقاض قرى ومناطق خاضعة للمعابد؛ وصارت السمة المميزة لولايات الشرق فى العصر الرومانى هى سيادة نظام المدن المتمتعة بالحكم الذاتى فى إطار إشراف حكام الولايات؛ هذا بالطبع باستثناء مصر التى

خصتها روما بسياسة استعمارية ظالمة تقوم على الحكم المركزى المباشر والسعى الى نهبها نهبا منظما. ترتب على إنتهاج سياسة تشجيع إنشاء المدن والدريلات تغيير فى شكل الولايات بعامة بما فيها الولايات الشرقية فى آسيا الصغرى وسوريا- اذ أن هذا الاتجاه فى المنطقتين كان قد بدأ قبل عصر الرومان بفترة طويلة.

وقد حدت الامبراطورية الرومانية من تدخلها فى الشئون الاقتصادية للولايات حيث إكتفت بجباية الضرائب أو الحصول على رسوم من اجل القيام بالأنشطة المختلفة عرضا عن نظام الاحتكار الذى مارسه عدد من ملوك العصر الهلينستى فى ممالكهم وفى مقدمتهم البطالمة فى مصر. كانت أهم الأنشطة الإقتصادية فى المدن الشرقية هى التجارة وأهمية تجارة الولايات الشرقية تعود أصلا إلى أن هذه الولايات كانت تمثل نهاية خطوط التجارة المعروفة برا وبحرا مع الشرق البعيد. وكانت موانى مصر وسوريا وآسيا الصغرى تسيطر على نهايات خطوط هذه التجارة التى كانت فى الغالب تجارة ترف تحمل العطور والتوابل والأحجار الكريمة والحرير وغيرها. وكانت الولايات تقوم على حماية هذه التجارة أثناء مرورها فى أراضيها من موانى الامبراطورية الرومانية على البحر المتوسط وبحر إيجة الى موانى الخليج الفارسى. وقد برز فى مهمة نقل وحراسة بضائع التجارة عرب تدمر وعرب النبط وقد أدى قيامهم بهذه المهمة الى ثرائهم ثراء هائلا. بل لعل هذا الثراء كان سببا فى تزايد أطماع الامبراطورية الرومانية فى دخولهم

رعجل بنقلهم من مرحلة الدولة العميلة لروما الى مرحلة الغزو المباشر. كما انتعشت التجارة البحرية بين مصر والهند بعد نجاح الرومان فى الاستفادة من الرياح الموسمية. وقد نمت هذه التجارة نموا مطردا حتى غدت تبادلا منظما أهم سلعه القطن والحرير وكانت السلعتان تصنعان فى الاسكندرية ويصدر فى مقابلهما الزجاج والأدوات المعدنية وربما التيل.

وتعود أهمية التجارة أيضا الى دور الولايات الشرقية فى التجارة الداخلية بين أجزاء الامبراطورية الرومانية؛ فالولايات الشرقية كانت ولايات متحضرة صاحبة صناعات متقدمة وزراعات متميزة ومن ثم مثلت منتجاتها جانبا هاما من حجم التجارة بين أجزاء الامبراطورية الرومانية المختلفة. ويكفى أن نذكر كميات القمح التى كانت تصدر من مصر الى روما والكروم والزيتون والأخشاب والمعادن من آسيا الصغرى وسوريا. وكان حجم التجارة الداخلية كبيرا حيث أنه تركز على بضائع الاستخدام اليومى. وقد أدى هذا الى ازدهار أو إستمرار ازدهار مراكز الصناعة فى الولايات الرومانية فى الشرق. فالاسكندرية التى كانت مركزا رائدا للصناعة منذ العصر الهلينستى استمرت فى اسهامها وأنتجت كثيرا من السلع والبضائع للسوق المصرية وللتصدير. لقد كانت الاسكندرية تنتج للعالم كله الورق من البردى وبعض أصناف الكتان والعطور فضلا عن بعض السلع الزجاجية، خاصة الخرز ومنتجات المعاج وأنواعا من الحلى والجواهر وأوانى فضية.

كما قدمت سوريا الزجاج المنفوخ وتقدمت بها صناعة الحلى

والكتان حتى صارت تنافس الاسكندرية فيها. وازدهرت صناعات الصوف مرة أخرى فى آسيا الصغرى وتعدى تصدير السجاد والأبسط الى تصدير أنواع من المنسوجات المصبوغة ولم يكن ينافسها فى هذا سوى سوريا.

وقد ساعد على الاستمرار والتوسع أن ولايات الشرق لمصر وبلاد اليونان وآسيا الصغرى وسوريا) عرفت نظاما متكاملا من الطرق البرية والنهرية. فاستمر تبادل السلع والبضائع على مدى الأجيال داخل نطاق هذه البلاد بعد أن أصبحت ولايات رومانية.

أدت هذه السياسة الأقتصادية الى إنتعاش ملحوظ فى الشرق . نرى آثار ذلك فيما خلفت هذه المدن الشرقية من آثار ونقوش فى آسيا الصغرى وسوريا فضلا عما حملته أوراق البردى فى مصر من معلومات. تؤكد بوضوح التقدم الاقتصادى الذى حققه الشرق.

ضمت الامبراطورية فى القرن الثانى عدداً هائلا من المدن المستقلة لكل منها حكومة وحياة خاصة وتواجه ظروفها الأقتصادية والاجتماعية. وتخضع هذه المدن كلها لحكومة مركزية تدير الأعمال السيادية من علاقات خارجية وشئون حربية ومالية ويرأس هذه الحكومة المركزية الامبراطورالذى ينيب عنه مندوبين فى الولايات ويقوم الى جانب الامبراطور مجلس السناتر الذى كان قد تقلص دوره حتى صار هامشيا. والسلطة المركزية كانت تحرص على عدم التدخل الى حد كبير فى ممارسة المدن لشئونها

المحلية. وأقتصر دورها هناك على جباية الضرائب وإدارة أملاك الامبراطور والدولة ونوع من القضاء.

إننا نعرف الكثير عن أحوال هذه المدن فى الولايات الشرقية من خلال ما تركته من أطلال فى آسيا الصغرى وسوريا ومصر. نعرف الكثير عن نشاطها الاقتصادى وموارد ثروتها وعقائدها الدينية وملاعبها ونشاطها الفكرى. وتجدر الاشارة الى أن الولايات الشرقية ضمت مدنا نافست روما فى ثرائها كالأسكندرية فى مصر وأنطاكية فى سوريا وإفسوس فى آسيا الصغرى. وهناك مئات من المدن الكبيرة الجميلة أقل منها حجما وثراء كانت تملأ الولايات الشرقية. وتأتى فى مقدمة هذه المدن بلدان التجارة والصناعة وأغلبها كانت مراكز لتجارة واسعة مثل باميرا والبتراء وبصرى وهى مرافئ التجارة عبر الصحراء وكانت أجمل مدن الأمبراطورية وأغناها. ويلى هذه المدن مراكز أقاليم زراعيه وكانت مدنا كبيرة ذات مبانى حسنة وأغلبها شيد على أنهار وكانت ملتقى طرقا تجارية.

ورغم الأختلاف فى المساحة وعدد السكان والثروة والأهمية فإن مدن الامبراطورية اشتركت فى حرصها على توفير اكبر قدر ممكن من الحياة الرغدة لسكانها. كما أن أغلب مدن الشرق الهلينستى كانت تتمتع بنظم للتخلص من مياة المجارى وتصل المياة الى منازلها حتى الطبقات العليا كما تخترقها طرق مرصوفة وبها ميادين عامة وجوانب شوارعها مسقوفة لتحمى السيارة من الشمس والمطر. وبها أسواق جيدة وحمامات عامة فضلا

عن المباني العامة مثل الجمنازيا وبالايسترا (حلبات المصارعة). فضلا عن المباني العامة مثل مبنى Curia ودواوين الموظفين وأبهاء الاجتماعات الحكومية والمحاكم وسجون وغير ذلك. بالاضافة الى مباني أقيمت من أجل الترفيه والرياضة والتعليم والمسارح والملاهي والملاعب والمدرجات ودور الكتب والأديرة. وكانت المنازل في الاغلب الأعم فسيحة الأرجاء رحبة ومجهزة بوسائل الترفية ومزودة بالحمامات الخاصة والسلالم الحجرية. وقد قام ببناء الأغلب الأعم من هذه المنشآت أفراد الطبقات العليا من السكان. أما نفقات المدينة فكانت تتم من حصيلة الضرائب المتنوعة التي يخضع لها السكان. ورغم أن بعض المدن كان دخلها عظيما فإن نفقاتها كانت كبيرة جدا. ورغم أن هذه المدن اعتمدت في وظائفها الكبرى المدنية والدينية على مبدأ التطوع أو التكليف الإلزامي. الا أنها كانت تدفع مرتبات منتظمة لصغار العاملين، فضلا عن عبئ صيانة المباني العامة.

وكان ضمان التأكد من توفير المواد التموينية باستمرار وذلك بتأمين احتياجات المدينة من المواد الغذائية بند يكلف ميزانية المدينة الكثير حتى أن أخصب الولايات كانت تصادف من وقت لآخر نقص في الانتاج وكان عدم الاسراع بتوفير المواد النادرة يعرض أمن المدينة للخطر.

كانت العناية بالتعليم الافريقي والتدريب الرياضي إحدى المهام التي حرصت عليها مدن الشرق المتهيلنة. ونحن نعلم أن المنتسبين الى معاهد الجمنازيا كانوا طبقة خاصة من المجتمع وكان إنتسابهم اليها يمنحهم بعض

الامتيازات ، من ثم كان الوفاء بمتطلبات هذا التعليم باباً من أبواب الانفاق في المدن في الشرق تحت حكم الرومان.

وهناك المعابد وما يرصد لصيانتها من أموال فضلا عن تكاليف تقديم الاضحيات للآلهة والأبطال والقيام بالولائم والاحتفالات على شرف مختلف الآلهة. ولذلك كان لبعض المدن ادارة مالية خاصة لشئون العبادة.

وقد تكلف المسئولون عن التمرين أو التعليم أو المعابد الكثير من نفقات وظائفهم وهذا لم يعف المدينة في أحوال كثيرة من تحمل نفقات بعض المناسبات.

وكان ثراة المدن يتنافسون على شغل هذه المناصب خلال القرن الأول الميلادى بل كانوا يدفعون مبالغ من المال نظير تكليفهم بهذا الشرف وقد استمر الحال هكذا خلال النصف الاول من القرن الثانى. وكان المواطنون لايكتفون بمساهماتهم فى الوظائف الطوعية. وانما كانوا يقدمون بسخاء يد العون لتنفيذ كل ماتطلبه مدنهم. وينسب الى هؤلاء المواطنين إقامة أغلب المبانى العامة فى مدن الشرق.

ولدينا أسماء المئات من اهالى بلاد اليونان وأسيا الصغرى قدموا مثل هذه المساهمات. وقد حفظت لنا الآثار اسم احد مواطنى لوكيا فى آسيا الصغرى ويدعى أوبرامواس Opramoas انفق الملايين لسد إحتياجات مدينة راديابولس Rhadiapolis بل واحتياجات مدن لوكية

أخرى. وقد ظهر على شاكلته كثيرون فى جميع مدن الشرق.

وهكذا نجد أن التجارة فى الامبراطورية الرومانية خلال القرنين الأول والثانى كانت المصدر الأساسى للثراء. وقد إتجه التجار الى إستثمار الفائض من أموالهم فى الصناعة والأراضى وإقراض المال. ومن ثم فليس غريبا أن نجد أغنى مدن الامبراطورية هى المدن التجارية سواء وقعت على البحر أو على الطرق البرية التجارية. وكانت الصناعة من الموارد الأخرى للثروة. وقد إحتفظ الشرق بتقدمه الصناعى بالنسبة لباقى الامبراطورية وكانت آسيا الصغرى وفينيقيا تتميزان بانتاج الملابس الملونة الراقية والبسط وكانت آسيا الصغرى المركز الرئيسى لصنع الملابس الصوفية، كما كانت سوريا ومصر مركزين لصناعة الملابس التيلية، وكان أفضل أنواع البضائع الجلدية من انتاج الشرق الأدنى.

فإشتهرت سوريا وبابل وآسيا الصغرى ومصر بتلك المنتجات وكانت مصر تحتكر صناعة الورق من البردى كما عرف الرق الذى إشتهرت به آسيا الصغرى وسوريا.

وكان لايزال للزجاج السورى والمصرى قيمة عالية فى جميع أنحاء العالم الرومانى وكانت الجواهر البديعة ذات أصل شرقى.

اعتمدت كل المصانع الكبيرة على عمالة من العبيد وإن لم تكن مقصورة عليهم وحدهم. وفى مصر كان العمال من الأحرار الوطنيين وقلما قابلنا عملا من العبيد فى مصر. كان العمال فى كل ولايات الشرق خلال

الامبراطورية يراجهون ظروفا صعبة. فكانوا فى مصر يهربون الى المعابد التى كان لها حق حماية اللاجئين اليها. أما فى آسيا الصغرى فتصادف ظاهرة فريدة وهى قيام العمال باضراب عن العمل رغبة من تحسين ظروفه أو اعتراضا على واقع يرفضونه. ومن أمثلة هذه الاضرابات ما حدث فى بيثينيا وذكره ديو. وماذكره نفس المؤلف عن مشاكل قام بها عمال مصانع الكتان فى طرسوس.

لقد كانت مظاهر الرخاء فى المدن فى الشرق خلال عصر الامبراطورية يعطى ايحاء بالثراء الشديد. ولكن يجب أن نعلم أن هذا الثراء كان مقصورا على شريحة رقيقة من السكان خرجت من بين طبقة خلفاء المتأغرقين الذين كانوا يشلون عصب هذه المدن ويملكون الأعمال الوسطى من تجارة وإدارة. وكان العلم والثقافة قصراً على تسمى هذه الطبقة. أما ماعدا ذلك من سكان فكانوا يعيشون فى فقر شديد ساعد عليه الاعتماد على العبيد فى الصناعة فأدى هذا الى إنخفاض أجور الاحرار من الفقراء الى حد الكفاف. والطبقة العليا من سكان المدن فى الشرق إستمرت تتحدث الاغريقية وتتعلم بها وتستخدمها فى تعاملاتها.

الولايات الشرقية بعيدا عن المدن:

واذا تركنا المدن فى الشرق فإننا نواجه الكتلة الضخمة من السكان الذين يعيشون فى القرى. وهؤلاء لم يتأثروا الا بقدر ضئيل بحياة المدن

المنتشرة فى أراضيهم ولم يندمجوا فى حياتها. فظل لكل من الريف والمدن حاله المستقل الى حد كبير.

فى آسيا الصغرى ألحقت الأراضى القريبة من المدن بها واعتبر ما بها من قرى وسكان قرويين جيرانا يعملون فى الأرض لصالح المدينة دون أن يكون لهم حقوق المواطنة فيها. بالإضافة الى ماكان يملكه سكان المدن -خاصة القريبة من البحر-من مزارع صغيرة أو كبيرة يقوم على العمل فيها المالك بنفسه أو بعبيده.

أما المساحات التى كانت غير تابعة للمدن ككل أو لسكانها كأفراد فقد كانت ملكا للامبراطور وأسرته أو لأفراد من العائلات السيناتورية الغنية أو للمعابد التى أقامها السكان الأصليون لآلهتهم هنا وهناك، كانت الحياة بدائية فى الأراضى التى تتبع التصنيف الأخير. فالفلاحون زرعوا الأرض كمستأجرين أرقاء للأباطرة أو مستأجرين أحرار لأعضاء مجلس الشيوخ أو كعبيد مقدسين للمعابد. ولقد اتسعت بعض هذه القرى وزادت أهميتها الاقتصادية بل وحقق بعض الفلاحين درجة من الغنى. ومع ذلك فقد بقيت القرى مجموعات من الأكواخ يعيش فيها الفلاحون ودور للحكومة وبيوت للعمال حتى نهاية عصر الامبراطورية الرومانية.

أما الرعاة الذين عاشوا على الجبال والهضاب فى أرمينيا وكبادوكيا فقد كانت حياتهم طليقة ينهبون ويسلبون ما يستطيعون ويؤدون الجزية لكل من لديه السلطة والقوة القادرة على إخضاعهم.

وليس بامكاننا أن نحدد على وجه اليقين الأراضى التى كانت ملحقة بالمدن وتلك التى لم تخضع لها ولكن المؤكد أن أودية الأنهار مثل هرموس وميائدر كانت أراضى للمدن وكذلك الأراضى القريبة من البحر. وماعدا ذلك قلت فيه المدن مثل بعض أجزاء كيليكيا وكبادوكيا وأرمينيا وكوماجين.

أما عن الأحوال الاجتماعية والاقتصادية فى سوريا فمن الصعب النظر فيها باعتبارها موضوعا واحدا. فالأراضى الآرامية الواقعة على تخوم آسيا الصغرى لها طبيعة تختلف عن طبيعة السواحل الفينيقية والفلسطينية والأراضى المجاورة للصحراء بما فيها من واحات واسعة خصوصا واحات دمشق وتدمر. وهناك أيضا أراضى عبر الأردن المعروفة بالمدن العشر (ديكابولس) أما بلاد العرب النبطيين Arabia Petraea فكانت وحدة منفردة بذاتها.

والأراضى السورية من كل النوعيات أرض معمورة مثل الوجود الرومانى فيها فترة قصيرة من حياة امتدت آلاف السنين قبل وبعد الرومان. والرومان لم يقوموا ولم يكن فى وسعهم أن يقوموا بتغييرات جذرية تؤثر فى حياة هذه المناطق وسكانها. ومن هذا صار ضروريا أن نشير الى ماكان سائدا فى المناطق السورية قبل العصر الرومانى حتى يمكننا التعرف على هذه الحياة خلال ذلك العصر.

فى الشمال قامت أربع مدن كبيرة أنشئت جميعها فى العصر السليوقى وهى أنطيوخ (أنطاكية) وسليوقية وأباميا واللاذقية تعرف بالمدن السورية الأربعة (تترابولس).

كانت أنطاكية عاصمة الملك سوريا خلال العصر الهلينستى وبقيت عاصمة للبلاد خلال العصر الرومانى وهى من أكبر مدن الامبراطورية، وأراضيها الزراعية واسعة نعرف منها عشرة آلاف إقطاعية كانت ملكا لمجلس المدينة يؤجرها للمواطنين.

ولكن القرن الرابع الميلادى شهد تركز ملكية أغلب أراضى المدن فى أيدى عدد قليل من الأثرياء. وقد أقام هؤلاء الثراة دوراً ريفية رائعة ذات مساحات متسعة وتدل أطلالها على متانة بنائها وتضم إصطبلات وحظائر للماشية وحجرات للعبيد فى الطابق الأرضى وتضم مخادع للملاك الأثرياء فى الطابق العلوى. وفى ذلك القرن كان ثراة المدينة عشر السكان بينما العشر الثانى يتألف من الرعاع والبقية كانت على مايبدو من الملاك الصغار والتجار. أما المزارع فكان يعمل فيها صغار المستأجرين وأما مزارع الكروم فكان يعمل بها عمال زراعيون. ويبدو من كتابات القديس يوحنا فم الذهب أن هؤلاء الفلاحين كانوا أحراراً يعيشون فى فقر مدقع ولكنهم لم يكونوا أتنانا للأراضى. وكان الفلاحون الساخطون على إستعداد دائم للتمرد. ويبدو أن هؤلاء الفلاحين كانوا يعيشون فى قرى متناثرة فى الأراضى الزراعية التابعة للمدينة والمؤكد أنهم من السكان الأصليين الذين

أقاموا هناك على مدى العصور ولم يحصلوا على حقوق المواطنة في المدينة. وقد استغل الرومان القرى كمصادر لامداد الفرق المساعدة في الجيش الروماني بالجنود.

ويمكننا أن نقول بإطمئنان أن المدن الأخرى في شمال سوريا وأراضيها الزراعية عاشت نفس الظروف. والى جانب المدن وقراها قامت قرى حول معابد الآلهة وكانت هذه المعابد تتمتع بنوع من الاستقلال الذاتي مثل معبد بيتركاكي Bautocace الذي إمتلك قرية كبيرة وكان ملحقا بمدينة أباميا. كان المعبد يملك ويحصل على الدخل ويتمتع بإعفاء كامل من الأعباء. والمسئولون عن المعبد كانوا يشرفون على احتياجاته ويمثلونه في أية علاقات مع المدينة. وهناك معابد أخرى تمتعت بمزايا مشابهة كمعبد جوبتر في دوليخي Dolichenus وهي قرية في شمال سوريا. وكمعبد بعلبك وهناك أيضا مناطق ملكيتها معابد تمتعت باستقلال أكبر.

وقد كون الإيتوريون (١) في أقليمي أبيلا وخالكيس دويلتين خاضعتين للرومان في لبنان. بقيت الأولى حتى عهد كلوديوس ودامت

---

(١) هم عرب من قبل التاريخ إحتلوا لبنان وهرمون-و Massyas حيث قامت عاصمتهم خالكيس وهليوبولس مركزهم الديني. إمتد نفوذهم في القرن الأول ق.م الى دمشق. واعترف بزعيمي بملكهم وكان يدعى بطليموس ولكن إبنه Lysunias قتل على يد أنطونيوس عام ٣٥ ق.م وضمت مملكته الى أملاك كليوباترة خضعت هذه البلاد لهيرود وخلفائه حتى أواخر القرن الأول الميلاد. وكان الإيتوريون بدائيين يعيشون في قرى ويشتهرون كرماة سهام وقد جند منهم عدد من القبائل في الجيش الروماني.

الثانية حتى عهد تراجان. والمدن فى هذين الأقليمين لم تكن اكثر من عواصم قروية لمناطق زراعية تحيا حياتها القديمة. أما المدن التجارية الكبرى كدمشق وحمص وتدمر فلم تصبح قط مدنا يونانية بالمعنى المتعارف عليه كما كانت أنطاكية مثلا، ولكنها ظلت كما كانت موطنا لملوك كهان قامت حكوماتهم كما كانت الحال منذ القدم على عمق الشعور الدينى لدى الفلاحين فى الشرق نحو ممثلى الإله على أرضه وهم الكهان.

حققت تدمر إمتدادا لسلطانها شمل إقليما كبيرا تزاحمت فيه القرى كما شمل بعض القبائل البدوية. وقد ورد ذكر هذه القرى التى لم تكن سوى ضياع يملكها كبار التجار فى تدمر فى (نكوس) تدمر التى ذاع صيتها. ولقد جاء من هذه القرى والقبائل الرماة المتازون وراكبو الابل السريعة من بين أجناد تدمر وجنود الجيش الرومانى وقد نمت بعض الأماكن كدورا يوروبس الراقعة على حدود منطقة تدمر والتى تحكمت فى الطرق الحربية والتجارية المؤدية الى بارثيا فإصبحت مدنا ناجحة تحمى كل منها قلعة حربية. وهذه الصورة من المحتمل أنها تنطبق على دمشق، فكانت أراضيها تتاخم صيدا. أما حمص -كما هو معروف- فقد ظل يحكمها ملوك كهان من الطبقة الأرستقراطية الأصلية فى المدينة طوال حكم الرومان. وقد إندمج هؤلاء النبلاء -كما حدث فى تدمر ودمشق- فترة قصيرة فى سلك الأرستقراطية الامبراطورية وأظهروا نشاطا ملحوظا فى حمل أعباء الادارة فى الامبراطورية، وذلك قبل أن يرتقى إثنان

ذوى أصول سورية عرش الامبراطورية.

أما المدن الفينيقية فأخبارها قليلة خلال العصر الامبراطورى فيما عدا مانعرفه عنها فى ميادين التجارة والصناعة.

أما فلسطين فيجب التمييز بين باقى البلاد وتلك المناطق المتهيئة على الساحل كغزة وأشيدون وعسقلان ويافا وبتوليمايس وعكا. وكذلك المدن التى أقامها هيرود فى الداخل وعلى الساحل، ولاسيما قيصرية على الساحل وطبرية وسباستى (السامرة) ونيابولس الرومانية (نابلس) التى شيدت فى عصر متأخر. ويبدو أن المدن الفلسطينية المتهيئة لم تكن بينها وبين مدن سوريا وفينيقية إختلاف كبير. كما كان لكل مدينة مناطق زراعية ملحقة بها يقيم فيها السكان الأصليون الذين كانوا يعتمدون الى حد كبير على عمل أيديهم كمورد رزق لهم.

ولكن الجزء الاكبر من يهودية والجليل والسامرة بقى كما كان قرى يسكنها الفلاحون. إن ماسمى مدنا فى يهودية ولا نستثنى من ذلك أورشليم كانت مراكز دينية وادارية فحسب قامت بدورها كعواصم لمناطق ريفية وتشبه مثيلاتها فى مصر. والرجل كان يعتبر غنيا فى يهودية إذا ملك عقارا أو قطعانا كثيرة من الضان والماعز أو عمل فى جباية الضرائب. والرجل العادى هو الفلاح الذى يكدح فى الحقل ويقال الصانع فى قرية صغيرة للنجار والحداد والاسكاف وغيرهم.

وفى قرى يهودية والسامرة والجليل عاشت طبقة من السكان الاصليين من كبار الملاك فمثلما كان الحال على عهد الميكابيين وكان قادة الحياة الدينية والحكام ايضا راسماليون وتجار يحفظون أموالهم فى معبد أورشليم. وأكثر من هؤلاء ثروة وغنى مرظفو الملرك والحكام الرباعيين ثم الملرك أنفسهم وأسرهم والحكام الرباعيون أنفسهم وأسرهم. وأخيرا تأتى ضياع الامبراطور الرومانى والأسرة الامبراطورية وعدد من المستعمرات الحربية الرومانية أقامها فسبسيان بعد الحرب اليهودية. هذه الصورة للحياة فى فلسطين بقيت دون تغيير يذكر فيما عدا إزدياد عدد الملاك من غير اليهود.

وكما ذكرنا كان للمناطق الخصبة فيما وراء نهر الاردن وفى حوران الحديثة والأراضى المجاورة الصحراوية التى تسكنها قبائل من العرب صورتها الخاصة. فالمنطقة الخصبة قامت فيها مدن يرنانية منذ أيام الأسكندر وخلفائه. وكل مدينة صارت عاصمة لاقليم زراعى. وكان سكانها ملاك الأراضى. أكثر هذه المدن قام على انقاض قرى قديمة كان يقطنها السكان الأصليون وقد خضعت للملرك من سكانها الأصليين متأغرقين فى فترات إضمحلال الدولة السليوقية. بذلت الامبراطورية الرومانية جهودا متوالية لاستعمار المنطقة برجال يشتغلون بالزراعة وإخضاع السكان الأصليين

وأغلبهم من العرب. وقد إزدهرت حياة هذه المنطقة بعد أن ساد السلام الروماني وضمت مملكة النبطيين وحلت الطرق الرومانية الجديدة محل طرق القوافل القديمة وحرستها حاميات رومانية. وهكذا أصبحت المدن القديمة مراكز تجارية رائجة ولازالت أطلال بصرى وجرش وفيلادلفيا تشهد بازدهارها.

واستقر الناس وزرعوا واستبدل العرب بخيامهم بيوتا حجرية وبمراعيهم حقولا تنبت الحب الوفير. وأما القبائل فقد بقى إغلبها مرتحلا وان أقلعوا عن الاغارة والنهب. وضمت قرى عديدة خليطا من السكان من سوريين وعرب عملوا فى التجارة مع البدو وغرسوا الزيتون والكروم وزرعوا الحبوب وصنعوا الأقمشة الصوفية.

وقد قاد هذا التطور الجنود العرب المسرحين من الخدمة فى الجيش الرومانى. والذين شهدوا أنظاراً ثانية ثم عادوا الى أوطانهم يحملون خبرات جديدة وقد جاء معهم كثيرون من الأجانب الى أستيطان القرى العربية.

وهكذا يمكن أن نقول أن عصر الامبراطورية الرومانية شهدت فيه البلاد السورية حياة متنوعة النشاط نظرا لتنوع الظروف البيئية. ولكن بقيت سوريا تحت حكم الرومان كما كانت قبل دخولهم، فلم يتقدم بناء المدن تقدما يسترعى الأنتباه. ولم تتأثر البلاد بالثقافة اليونانية بعيدا عن المدن

المتأغرقة واستقر بعض سكان الريف فى المدن ولكن أغلبهم عاشوا كما عاش أجدادهم مخلصين آلهتهم ولمابدهم محافظين على تقاليدهم فى الحياة(١).

---

(١) روستوتزف ، م، تاريخ الامبراطورية الرومانية الاجتماعى والاقتصادى. ترجمة زكى على و محمد سليم سالم ، القاهرة ١٩٥٧
السيد احمد الناصرى ، الامبراطورية الرومانية ، القاهرة .
ول ديورانت ، قصة الحضارة ج١١ قيصر والمسيح القاهرة ١٩٧٣

٤- الحياة الاجتماعية والاقتصادية في مصر خلال عصر الامبراطورية الرومانية

زاد التدخل الرومانى فى أمور مصر الداخلية منذ أوئل القرن الثانى ق.م حتى أصبح ضم مصر الى أملاك الشعب الرومانى مسألة وقت. لقد إنتظرَت روما الوقت المناسب لضم مصر ولعلها لم تجد ضرورة للتعجيل بذلك فقد كان أمراء البطالمة رهن إشارتها يرجون رضاها وإعترافها بهم. ومما يؤكد ذلك أن فكرة ضم مصر قد نوقشت فى روما قبل الضم الفعلى باكثر من ثلاثين سنة عندما إقترح كراسوس ضم مصر فى عام ٦٥ق.م وتكرر هذا الطلب فى عام ٦٤ ق.م.

كان ضم مصر الى الامبراطورية حدثا جللا فى حياة مصر المديدة فقد فقدت إستقلالها كدولة وإنتقلت عاصمتها الى روما وأصبحت مجرد جزء فى إمبراطورية تتلقى أوامرها من تلك العاصمة البعيدة بينما لاتملك لنفسها قرارا. ويظهر عمق إختلاف الظروف فى مصر مع سقوطها فى أيدى الرومان من أن المستعمر الرومانى حرص على الحصول على ضريبة سنوية تدفعها مصر بعضها نقدى والبعض الآخر عينى. كانت هذه الضريبة باهظة تخرج من مصر بلاعودة بينما كانت الأموال التى تجمع على أيام البطالمة تبقى فى مصر مهما كان الخلاف على أسلوب إنفاقها أو صورة هذا الإنفاق.

سكان مصر

قدر عدد سكان مصر عند بداية الاحتلال الرومانى بسبعة ملايين ونصف. ومن المؤكد أن هذا العدد كان يضم الأغلبية السكانية المصرية المحكومة بجيش الاحتلال الرومانى. فضلا عن وجود أغراب كثيرين فى مصر مثل الاغريق والمقدونيين وعناصر من اليهود والفرس والليبيين وغيرهم فضلا عن الرومان الحاكمين. وكان سكان مصر خلال العصر الرومانى ينقسمون من الناحية الرسمية الى فئتين :-

الرومان:

وكانوا يضمون الموظفين الرومان وجنود الحامية الرومانية فضلا من رجال الأعمال الذين إرتبطت مصالحهم بمصر، وإن كان أهم المصادر الثلاثة التى يدفع الى مصر بمواطنين من الرومان هو الحامية العسكرية . هؤلاء الشبان الذين جاءوا فى الغالب من الولايات المختلفة فضلا عن أبناء بعض الاسكندريين كانوا يقضون فى مصر ربع قرن من الخدمة العسكرية ثم يسرحون ويمنحون الجنسية الرومانية. أغلب هؤلاء الجنود كانوا يرتبطون بمصر بعد تسريحهم من الخدمة ويقيمون فيها.

وقد إتصل هؤلاء الجنود بالمجتمع وتزوجوا منه ضد رغبة القانون. وكونوا فى النهاية جالية رومانية فى مصر إنضم اليهم أعداد من مواطنى الاسكندرية الذين اكتسبوا المواطنة الرومانية. وكان المواطنون الرومان فى

مصر يتمتعون بأوضاع متميزة عن بقية السكان. وكان يختار منهم كبار الموظفين وكانوا معفين من الخدمات الالزامية والمحلية فضلا عن عدم خضوعهم لضريبة الرأس واعفائهم من بعض الضرائب الأخرى.ونعلم من البرديات أن المواطنين الرومان(بصرف النظر عن أصولهم الأولى) كانوا منتشرين فى مصر. وقد إستمرت هذه الوضعية المتميزة الى أن منح الامبراطور كراكلا حق المواطنة فى أوائل القرن الثالث الميلادى لكل سكان الأمبراطورية.

المصريون :

وهو تعبير أطلق إصطلاحا على كل سكان مصر ماعدا الرومان فضم المصريين والإغريق واليهود والسوريين والفينيقيين والليبيين وبقايا الفرس وأصحاب أى جنسيات أخرى عاشوا وسط المصريين(١). ولقد كان أساس التمييز بين الجنسيات هو الخضوع لضريبة الرأس وهكذا لم يميز سوى الرومان الذين لم يخضعوا لها. ومع ذلك فإن هذه الضريبة أعفى منها الاسكندريون وفرق بين عدم الخضوع والأعفاء. ورغم أن كل ساكنى مصر فيما عدا الرومان إعتبروا مصريين الا أننا يمكن أن نرى هرما إجتماعيا يضم طبقات مختلفة ممن يطلق عليهم هذا الاسم. وكان أعلى الهرم الاسكندريون وكانوا إغريقا أو متأغرقين يتمتعون بالعديد من المزايا. فقد

---

(١) يذكر هذا بالاصطلاح الذى أطلقه الجبرتى على أمراء المماليك أثناء الحملة الفرنسية فقد إعتبرهم مصريين. بينما كانوا أغرباء فى نظر أهل البلاد.

كانوا معفون من أداء ضريبة الرأس وكانوا أصحاب حق فى الالتحاق بالجيش الرومانى وكان لهم الحق فى طلب الجنسية الرومانية. كما كان الاسكندريون خارج الاسكندرية لايخضعون لسلطة المحافظ فى محافظته وإنما يتبعون رئيسه الذى يشرف على عدد من المحافظات ويدعى Epistratigos.

لم يكن كل الاغريق والمتأغرقين إسكندريين بل كان منهم من يعيشون بصفة دائمة فى عواصم المحافظات بل وحتى فى القرى. وقد نظر اليهم باعتبارهم أدنى منزله من مواطنيهم الذين عاشوا فى الاسكندرية فخضعوا لضريبة الرأس وان كانت ذات قيمة مخفضة. وقد إجتمعوا فى جمعيات ثقافية وكذلك فى الجمنازيا المنتشرة فى عواصم المحافظات حفاظا على أصولهم الثقافية وكانوا يمثلون أرستقراطيه ريفية يتم اختيار موظفي الادارة المحلية من بينهم.

وهناك أيضا جالية يهودية تعتبر أقدم الجاليات الأجنبية فى مصر. لقد كانوا اكثر هذه الجاليات عدداً على العصر البطلمى واستمرت وضعيتهم على هذا المستوى فى العصر الرومانى بل وطالت صراعاتهم مع الاسكندريين وسعوا للحصول على الجنسية الاسكندرية دون فائدة. وكانوا يسكنون الحى الرابع من أحياء الاسكندرية الخمسة. واعتبروا جالية عنصرية معترف بحقها فى ادارة شئونها وكان لها رئيس ومجلس شيوخ.

كل من سبق يمثلون مجتمعين مجرد أقلية سكانية فى بحر من المواطنيين المصريين أحفاد الفراعنة. هؤلاء المصريون استمروا فى حياتهم دون تغيير يذكر فيما عدا زيادة عبئ الضرائب عليهم حيث كانت حكومة الاحتلال الرومانى اكثر كفاءة من الحكومات الضعيفة فى أواخر عهد البطالمة. فقد إستمرت الحياة فى القرى كما كانت من قبل والنيل يعطى فيضانه السنوى المخصب الذى يأتى فى بعض السنوات عاليا وفى بعضها الآخر شديد الأنخفاض ولكنه فى الاغلب كان يأتى مناسبا تماما لاعطاء محصول جيد.

الحكومة الرومانية فى مصـــــر:

لم تتغير نظرة المصريين الى حاكمهم الأعلى البعيد ومدى تدخله فى حياتهم. فقد نظروا اليه فى العصر الرومانى كما نظروا للملوك البطالمة من قبل بل والملوك الفرس أيضا باعتبارهم أسرا مالكة جديدة من الفراعنة الغرباء. ومن ثم إستمر بناء المعابد وزخرفتها على الطراز المصرى خلال الثلاثة قرون التى حكمها الرومان. ومثل الأباطرة على الجدران بالجلسة التقليدية للفراعنة، تحيط بهم رموز الملكية المصرية كالتاج الفرعونى والخرطوش الذى يحمل داخله اسم الحاكم بالهيروغليفية، ونصوص هيروغليفية إضافية تكرر ألقاب الفرعون باعتباره إبنا لرع والمحبوب من بتاح وإيزيس الخ..

ولعلنا لانجاوز الحقيقة إذا ذكرنا أن تنظيمات الادارة وتطبيقاتها سواء المحلية منها أو المركزية هى التى طبعت مصر بطابع الولاية الرومانية. فمنذ عهد أغسطس، ونظرا لأن مهمة مصر الأولى فى الامبراطورية الرومانية كانت إمداد مدينة روما بثلث إحتياجاتها السنوية من القمح، ولضمان استقرار الأمور هناك دون أية إضطرابات، عوملت مصر كما لوكانت ضيعة خاصة بالامبراطور. فرضعت مصر تحت حكم رجل يدعى القائد Praefectus على عكس الولايات الآخرى التى كان يحكمها رومان وصلوا الى مرتبة القنصل. وكان القائد بذلك أقل درجة من حكام الأقاليم الأخرى. وحرص أغسطس على أن يعينه كممثل شخصى لجلالته وحرص كذلك على أن يكون شاغل هذه الوظيفة من طبقة الفرسان، وهى الطبقة التى كان ينتمى اليها بأصله كما أنها الطبقة التى كانت منذ البداية العمود الفقرى الذى دعم حكمه. وتنفيذا لسياسته منع أيضا أى رومانى من طبقة الشيوخ بل وحتى الفرسان - إذا كانوا موظفين رسميين - من دخول مصر بدون إذن الامبراطور. وقد فعل أغسطس كل ما يستطيع للتقليل من أهمية وظيفة البرايفكتوس فى نظر الطامعين، وكان هدفه الاساسى الا تصبح مصر مرة أخرى مقرا لمنافس يطالب بالحكم كما كان الحال بالنسبة لانطونيوس. أما بالنسبة للمصريين فقد كان الحاكم نائبا عن فرعونهم الذى يعيش بعيدا فى روما.

أبقى أغسطس على التقسيم القديم لمصر الى نيف وثلاثين إقليما إداريا- Nomes كان يحكم كل منها إستراتيجوس. ورغم هذا الاطار الذى لم يتغير فقد تغيرت سلطة الموظفين فى الأقليم. فالمعروف أن الاستراتيجوى كانوا أيام البطالمة أصحاب سلطة عسكرية وسلطة مدنية أيضا. ولكن أغسطس جعلهم موظفين مدنيين فقط. أما القوات العسكرية فقد تم نشرها بأسلوب إستراتيجى فى كل الولاية ليس على الطريقة البطلمية بخلق جنود فلاحين يعيشون مع أهليهم فى أرض أقطعها لهم الملك، ولكن على النظام الرومانى الذين يقوم على الحياة فى معسكرات محصنة أو حاميات. عسكرت إحدى الفرق فى الاسكندرية والثانية فى بابليون -شمال ممفيس على الشاطئ الآخرللنيل. وعسكرت حاميات صغيرة من الجنود فى مناطق حاكمة مختلفة، مثل مناطق الحدود والمحاجر والمناجم، وملتقيات الطرق الهامة ومخازن الغلال.

لقد كانت الحكومة المدنية التى حكمت مصر -منذ أقامها أغسطس وطورها خلفاؤه- رومانية بوضوح، ولكن موظفيها فيما عدا شاغلوا الوظائف العليا كانوا من بين السكان المحليين. وكانت لغة العمل فى الحكومة اللغة الاغريقية وليست اللغة اللاتينية. وفى الاسكندرية ضمت بطانة الحاكم عددا من الموظفين والضباط مزدوجى اللغة، كانوا يقومون بترجمة كل المراسيم الامبراطورية من اللاتينية الى اليونانية لنشرها فى البلاد.

وبالنسبة للادارة المحلية أبقى الرومان على بعض المسميات البطلمية لبعض الوظائف وإن كان قد نال إختصاصات هذه الوظائف من التغيير على أيدى الرومان مانال إختصاصات الاستراتيجوس وبالنسبة لباقى الوظائف فقد إستحدثت تسميات جديدة ووظائف جديدة كلما دعت الضرورة الى ذلك، كما حكمت قواعد جديدة أوجها هامة فى الاقتصاد والمجتمع والدين.

لعل ماسبق يكفى كإطار للتاريخ السياسى لمصر تحت حكم الرومان وفيما يلى نوجه إهتمامنا الى حياة السكان فى مصر فى مدنهم وقراهم.

عواصم المحافظات:

كان لكل محافظة عاصمة تتركز فيها الادارة وكانت هذه العواصم تختلف فيما بينها من حيث المساحة وعدد السكان ومع ذلك. فالمؤكد أن هذه العواصم ضمت جمنازيوم وحمامات عامة ومسرح وبنك وعدة عشرات من المعابد فضلا عن خزانات للمياة يرفع اليها الماء بالطنبور على عدة مراحل ويقوم على تشغيلها ورديات من العمال، فضلا عن حوانيت متعددة وآلاف المنازل.

أغلب سكان عواصم المحافظات من الثراة يدعون أصلا إغريقيا سواء كان ذلك حقيقيا أم لا لأنه كان مصدر فخر ومباهاة بينهم بل أنهم شكلوا

حياتهم على نمط المدن الاغريقية الأربعة فى مصر. ولذلك خططوا مدنهم على شكل رقعة الشطرنج وأنشأوا مبان عامة فخمة ونصبوا الالعاب الاغريقية واقاموا الاعياد للمعبودات الأغريقية. وبنهاية القرن الثانى الميلادى كانت أغلب عواصم المحافظات تعانى صعوبات فى تدبير كل المصروفات المطلوبة للانفاق على الأنشطة المختلفة. وكان سكان عواصم المحافظات يعبرون عن حبهم للانتماء الاغريقى وإزدرائهم لكل ماهو قروى ومصرى. ومع ذلك فما زال الغموض يحيط بالحد الفاصل بين مواطنى عاصمة المحافظة والمقيمين فى عاصمة المحافظه ولايحملون مواطنتها. والمعروف أن الطفل عند ما كان يبلغ سن الرابعة عشر يجب عليه أن يحدد حالته مع طلب لتسجيله فى طبقة والديه الاجتماعية.

كان سكان عواصم المحافظات قادرين على إستخدام ثرواتهم ليس فقط فى تحقيق إحتياجاتهم وراحتهم وإنما أيضا بطرق تربط بين الاسراف الواضح والمظهر الاجتماعى. فخلال الامبراطورية الرومانية كانت الصورة المحبوبة للعطاء والبذل فى سبيل المجتمع تتم باهداء المبانى أو المرافق العامة أو زخرفه مثل هذه المبانى..الخ.

وإن كان المعروف أن عواصم المحافظات فى مصر لم تمارس قبل القرن الثالث أى صورة من صور الحكم الذاتى ومع ذلك فقد كان لمواطنى عاصمة المحافظة حق إختيار موظفين للقيام بمهام عامة محدودة، وكان مسموحا لهم أن يكرموا باطلاق لفظ «الموظفون السامون» عليهم. وسعد

مراطنو عراصم المحافظات بتضخيم الذات رغم أن المرشح لمنصب كان عليه أن يدفع رسوما عند حصوله على اللقب، كما كان يتحمل تكاليف المنصب كليا او جزئيا من جيبه الخاص. والوظائف (السامية) فى عاصمة المحافظة كان عددها ست، خمسة منها عرفت بنفس الاسم منذ عصر البطالمة وهى الجمنازيارخ (حاكم الجمنازيوم) والمشرف على النظام Kosmetes والمدير Exegetes والاجورا نومرس (منظم الاسواق) والكاهن الرئيس Archiereus أما الوظيفة السادسة والتى عرفت لأول مرة فى عصر الرومان فهى Eutheniarch مفتش التموين وكان مسئولا عن التأكد من سير أمور التموين للمدينة بيسر وعدم حدوث أزمات فيه.

فى البداية كان مراطنو عراصم المحافظات من الأثرياء يتصارعون للفوز بأحد هذه الوظائف الشرفية. ولكن منذ النصف الأخير من القرن الثانى الميلادى. تزايد عبء نفقات هذه الوظائف حيث بدت على إقتصاد مصر (وأيضا الامبراطورية ككل)علامات لاتخطؤها العين باتجاهه نحو التدهور، وبدأ رخاء كثير من عراصم المحافظات ينخفض. وصار تكليف الناس بهذه الوظائف يتم فى بعض الاحيان بالالزام.

وفى عام ٢٠٠ ميلادية عرف الهيكل الادارى فى عراصم المحافظات تطوراً رئيسيا عندما منح سيفروس كل عاصمة منها بولى Boule أو مجلس مدينة. وكانت هذه خطوة فى طريق الحصول على مرتبة البلدية

الرومانية وهى الخطوة التى تمت فى القرن الرابع.

تشير الوثائق الى أن منازل المدينة كانت تضم طابقين وأحيانا ثلاثة طوابق، وتتحدث أيضا عن منازل تضم أجنحة لاستقبال الرجال وأخرى للنساء، فضلا عن وجود مداخل ببراكى للاستمتاع بشمس الشتاء وبالراحة فى ليالى الصيف وأبراج وسقائف ومختلف الاشياء التى صممت للراحة والانسجام. وكانت بعض المنازل تستخدم الحجرات المطلة على الشوارع كحوانيت -وهو تنظيم ساد المدن فى إيطاليا والولايات خلال العصر الرومانى. إستخدم الطمى فى بناء هذه المنازل وقد ساعد على ذلك قلة المطر. وقد إختلف سمك الحوائط الخارجية عن الحوائط الداخلية وغطيت الحوائط بملاط زخرف سطحه بمناظر أسطورية بألوان زاهية.

ومنازل المدينة كانت تحصل على الماء من آبار حفرت فى ساحاتها تحملها أنابيب الى الحمامات ودورات المياة. وكانت حجرات النوم تقام عادة فى الطابق السفلى أما الأقبية فقد إستخدمت بصورة رئيسية للتخزين.

وقد إستخدم أهالى المدن ملابس ملونة لامعة، فالكسوة فوق أجسامهم ذات ألوان خضراء وحمراء مع تفضيل للون الأزرق بكل درجاته وملابسهم الداخلية كانت تصنع من الكتان. أما الملابس الخارجية فكانت من الكتان والصوف. وهناك أدلة وثائقية على زراعة القطن فى مصر من القرن الثانى الميلادى. أما المنسوجات الحريرية وهى ذات أصول صينية وهندية وكانت تستورد من فارس فكانت تستخدم لتزيين الملابس كالياقات

والحراف في ملابس الترف.

يلاحظ أن متوسط عدد أطفال العائلات في المدن التي ذكرت في إحصاءات السكان كانت تتراوح بين طفلين وثلاثة وإن كان عدد المواليد بلاشك أعلى من ذلك بكثير ولكن ارتفاع معدلات الوفيات بين الأطفال فضلا عن عادة الأغريق بترك الأطفال غير المرغوب فيهم يموتون بالاضافة الى استقلال شباب الأسرة عن عائلاتهم كل هذا يظهر العدد أقل من حقيقته.

كان الشباب يتزوجون في سن من حوالي الثامنة عشر الى العشرين والزوجات كن عادة أصغر منهم بعدة سنوات وعقود الزواج تبين الرغبة المخلصة للزوجين للحياة سويا بأخلاص وأن يراعي كل منهما حقوق الآخر، فالزوج يمد زوجته بكل ضرورات الحياة طبقا لإمكاناته والواجبات المتبادلة للزوجين كانت تكتب بتفصيل شديد. ويبدو أن الطلاق كان شائعا بعلى الأخص بين الأزواج الشباب. وعندما ينتهي الأمر بالطلاق فإن الزوج كان عليه أن يعيد كل شئ شملته الدوطة والهدايا المصاحبة والا فعليه أن يدفع قيمتها نقدا.

والاسرة في عاصمة المحافظة كانت تتكون من الوالدين والأطفال وربما بعض الاقارب والعبيد. وأغلب العبيد كانوا للخدمة المنزلية. حيث كان الفلاحون الأحرار مصدرا جاهزا لقوى العمل الموسمي في الزراعة والصناعة وبأسعار أقل. ومع ذلك فقد كانت هناك إستثناءات.

وأخيرا فنظرة الى النصوص الأدبية الباقية تبين أن أعمال كل

أدباء الاغريق المشهورين بل والكتاب الأقل شهرة ظلت تنسخ فى مصر طوال فترة الحكم الرومانى بل ولعدة قرون تالية. وعثر على نصوص لهوميروس وديموستينيس ويوريبديس وهيزيود كما عثر على وثائق ذات محتوى أدبى أو علمى. وقد عثر فى مصر أيضا على أقدم مخطوطة معروفة لأسفار العهد الجديد والكتابات المسيحية الأخرى. ورغم الاحساس بأن هذه الكتب كانت تقتنى لكى تقرأ ولكى تعاد قراءتها فإن هناك مايدل على قيام نشاط تمثيلى حيث عثر على مسرحية ليوريبديس من القرن الثالث الميلادى عليها ملاحظات للممثلين. وقد أنجبت هذه المواصم عددا من الكتاب مختلفى الشهرة والمكانة مثل أثينايوس جامع المتنوعات من مواليد نوقراطيس. وأفلوطين من ليكوبولس (أسيوط) ومن المؤكد أن هؤلاء رحلوا الى الاسكندرية وروما لاتمام دراساتهم، بينما بقيت مواطن ميلادهم أرضا بوراً من الناحية الثقافية.

وكان عدد الأميين فى المدن أقل منه فى الريف فمن بين ستمائة أمى سجلوا فى عدة مئات من البرديات نجد ثلاثة من هذه المدن. بل أن هؤلاء يعودون الى القرن الثالث الميلادى ويبدو أن عائلات حضرية كثيرة تأثرت بالازمة الاقتصادية للقرن الثالث كفت عن التعليم الذى كان واجهة إجتماعية هامة فيما سبق. بل أن عائلات حضرية اكثر واكثر توقفت عن الترفع المطلق عن سكان المدن من المصريين، وبدأت الزيجات المشتركة تأخذ مكانها.

وبالنسبة للبنات فإن قرار التعليم أو عدمه يبدو وأنه كان قرارا شخصيا يتعلق بالقرويين أكثر منه مرتقا إجتماعيا. إن المرأة التى كانت تقدر على الكتابه كانت تحس فخرا بذلك وكانت تسعى للتنوية بهذه الحقيقة.

ويبدو أن التعليم كان يبدأ فى سن العاشرة وكان تعلم الكتابة يتم فى المدن والقرية دون حاجة الى مدرسة حيث كان يقوم بعض العبيد والنساء بهذا العمل. ولكن التعليم فى المرحلة أعلى كان يتطلب فترة من الدراسة فى الاسكندرية.

قرى الفلاحين:

عاش الفلاحون معا فى قرى ونجوع. وكان عليهم أن ينتقلوا منها الى مناطق حقولهم على أقدامهم أو فوق ظهور الحمير وبعض هذه الحقول كانت تقع على مسافات بعيدة. وكانت القرية فى هيكلها العام كعاصمة المحافظة ولكنها أصغر حجما. فالقرية تبدو فى عينى الرائى من بعيد كومة من الجرانيط الساذجة مبنية من اللبن غارقة فى الطبيعة. ولكن عندما يقترب المسافر منها فإنه سيكتشف أن هذه الجرانيط لمنازل تقع فى مجموعات تفصلها شوارع ضيقة وأزقة.

وبالنسبة لغالبية الناس فقد كانت القرية هى موطنهم من المهد الى اللحد. ولكن الفلاحين الذين يثرون كانوا أحيانا يبحثون عن حياة أفضل

واكثر تحضرا بأن ينقلوا أسرهم لكى تعيش فى عاصمة المحافظة، حيث يمكنهم أن يعيشوا حياة متحضرة كتلك التى يعيشها أهل المحافظة وأن يطوروا حياتهم بما يناسب ثقافة أهل البندر. وعلى الرغم من أنهم كانوا مستبعدين بصورة دائمة من الأنضمام الى الطبقة المتميزة هناك بسبب أصولهم. لم يكن كل قروى يصيبه الثراء مشرق للإقامة فى عاصمة المحافظة، بل كثيرون وربما الأغلبية كانوا يفضلون للبقاء، حيث كانوا عمد المجتمع المحلى. يعيشون فى منازل تقترب من منازل المدينة فى المساحة والزخرفة، وأعداد العبيد. وكان الراغبون منهم قادرون على الوصول الى مستويات راقية من التعليم والثقافة. وهذا يفسر وجود نسخ من مؤلفات هوميروس وهزيود ويوربيديس وأفلاطون وغيرهم فى أطلال القرى. بل وعندما أرادوا كانوا يحضرون راقصات من عاصمة المحافظة.

ولكن مهما كان عدد هؤلاء الأغنياء فلابد أنه كان قليلا بالنسبة للتعداد العام لسكان القرى. حيث كانت الأغلبية تعيش على الكفاف. ولقد كان الرجال والنساء والأطفال والحيوانات المستأنسة مكدسين فى أحياء ضيقة ومزدحمة.

وبدراسة مايقى لدينا من وثائق إحصائية يمكن أن نقدر عدد سكان القرية بما بين أربعة آلاف وستة آلاف نسمة. ومما لاشك فيه أن هذا كان تعداد القرى الكبيرة. فقدكانت هناك قرى صغيرة جدا يقل عدد الرجال فيها عن مائة رجل.

وبالنسبة لطعام القروى فقد تكون بصورة رئيسية من النشويات التى يتم الحصول عليها من الحقل بالاضافة الى بعض النبتات البرية كاللوتس وأنواع من الثوم البرى وجذور البردى أما اللحوم فكانت ميسرة فقط لمن يربيها ولمن يملك ثمنها. فضلا عن الأسماك. وهناك شك فى أن أغلبية الفلاحين كانوا يحصلون على إحتياجاتهم من السعرات الحرارية.

وبالنسبة للملابس فقد كان لدى من يستطيع منهم طقم واحد جيد على الاقل للمناسبات والاحتفالات أما ملابس العمل فكانت قمصان أو عباءات بسيطة. وعلى عكس أهل المدينة كان سكان الريف حفاة فى الغالب.

والأسرة المتوسطة فى الريف المصرى كانت تملك بعض مساحات الأرض الزراعية وربما لجأت نفس الأسرة الى إستئجار قطعة أخرى بمايكفى أفراد الاسرة.

وفيما عدا عدد قليل من تمتعوابالثراء فان الحياة فى القرية المصرية ارتبطت إرتباطا وثيقا بالاقتصاد الطبيعي(نظام المقايضة) وبالنسبة للضرائب والالتزامات الأخرى كان من الضرورى دفعها نقدا. مثل هذه الأسرة كانت تعيش فى مستوى وسط بين الحياة السهلة والفقر المدقع.

إن الأفراد الذين كان لديهم فائض من الأرض لكى يؤجروها كانوا عدداً قليلاً ونسبة مايملكون محدود جداً بالنسبة للاراضى الزراعية.

وقد إستمرت المعابد تملك بعض الاراضى رغم ما صادره أخناتون

من املاكها. أما معظم الأراضي فقد كانت ملك للدولة أو شخص الامبراطور. حتى ما كان مملوكا لرجال البلاط وأغنياء الاسكندريين ذهب مع نهاية القرن الأول الى الامبراطور.

وكانت الأراضي العامة تدار تحت إشراف الرسميين في المحافظات والمحليات يعرضونها للايجار دوريا لمن يدفع اكثر. وعادة كان المستأجرون يعرفون بالفلاحين الحكوميين. وكانوا يزرعونها عادة بأنفسهم ولكن كان يمكن لهم أن يؤجروها من الباطن إن أرادوا. وكان المستأجرون يقدمون ضامنين لهم من أصدقائهم لافتقارهم الى الضمانات المالية أو العينية.

كان مالك الأرض إذا كان فردا يضطر عند الضرورة بسبب عدم خصوبة أرضه أو بعد مكانها الى تخفيض الايجار أو كان عليه أن يترك أرضه بغير زراعة في ذلك العام.

ولكن أراضي الدولة والامبراطور فكانت محصنة ضد هذا المصير حيث كان يفرض على أراضي الخراص من الجيران أن يقوموا بزراعتها. بل حدث في حالات المساحات الكبيرة أن فرضت الأراضي على القرية أوالقرى المجاورة، وكان ذلك يتم عن طريق السخرة.

ونتيجة لطبيعة العمل الزراعي تبدو القرية للزائر الغريب ساكنة. ولكن هذا الوهم سرعان مايبدده إكتشاف الزائر لوجود نشاط من كل نوع حرفيون يعملون وأطفال يلعبون وزوجات تنجزن أعمال المنازل أو تثرثرن . وبعض المشاحنات تثور فجأة بسبب أضرار حقيقية أومفتعلة.

وليس هناك مايمنع وجود لص يحاول إستغلال المرقب بسرقة سريعة.

ولدينا عدد من الوثائق البردية تذكر حدوث جرائم سرقات وعنف وانكار بعض الحقوق. ومع ذلك فالمؤكد أن الأصل فى العلاقات الانسانية فى القرية كان الانسجام والتعاون. ولدينا خطاب من القرن الأول نرى فيه رجل يترسل لأبيه من أجل العناية بزوجة صديق له عندما يقترب موعد وضعها لوليدها نظرا لغياب زوجها. وخطاب آخر من القرن الثانى يحمل عواطف دافئة تجاه معارف فى مناسبة زفاف إبنهم.

وأخيرا نلقى نظرة على المستوى الثقافى فى القرية والمؤكد أن الأمية كانت منتشرة بشدة. ولكن يجب أن نلاحظ أن الأمية هنا ربما كانت تعنى أمية باللغة الاغريقية ومع ذلك فإن ممارسة الكتابة بالخط الديموطيقى بدأت فى الأختفاء فى القرن الثانى الميلادى.

ومع ذلك نقد عثر على مايدل على وجود البعض ممن يمكنهم قراءة وتقدير الأدب الاغريقى. ويؤكد ذلك العثور على أجزاء من المؤلفات الاغريقية بين أطلال بعض القرى. وكما رأينا من قبل فإن العدد القليل من القرويين الأثرياء كانوا يميلون الى تقليد حياة أبناء عواصم المحافظات وهذا الميل يشمل السعى لتعليم أبنائهم تعليما إغريقيا. ولكن الجو السائد فى القرية المصرية على العصر الرومانى ظل أميا. ومن هنا ظهرت وظيفة الكتبة المحترفين الذين كانوا يكتبون للناس معاملاتهم وخطاباتهم وتعطى

كتاباتهم لنطلعنا بأن الأغلبية العظمى منهم يستطيعون أداء وظيفة الكاتب فقط دون أن يكونوا مثقفين.

الزراعة:

الواقع أن مصر هبة النيل ولولاه لكانت أرض مصر صحراء مثل الأراضى التى تقع شرقها وتلك التى تقع غربها. والفيضان السنوى المنتظم كان يغطى الوادى حتى يشبه البحيرة لاتقطعها سوى المدن والقرى المقامة على أراض مرتفعة. وكان الرخاء فى مصر يرتبط بارتفاع النهر الى ستة عشر ذراعا ولكن إرتفاع النهر اكثر أو إنخفاضه بشدة كان يحمل المخاطر. ولدينا دليل من عام ٩٩ ميلادية عن حدوث مجاعة فى مصر جعلت تراجان يعيد بعض السفن المحملة بالقمح الى مصر. ولاهمية النيل عرفت مصر مقاييسا لقياس إرتفاع الماء.

والزراعة فى مصر فى ذلك الوقت إتبعت فى الوادى نظام رى الحياض حيث كان الماء يغطى الوادى ثم ينسحب بعد إنتهاء الفيضان الى داخل حدود النهر. فيقوم الفلاحون ببذر البذور. أما فى الارض الاكثر إرتفاعا فكان يستخدم طنبور أرخميدس ويؤكد ديودورس إستخدامه فى الدلتا. ولكن آلة الرفع القديمة كانت اكثر إنتشارا وهى الشادوف ومع ذلك فإن مهارة الانسان لم تستطع أن تنتج محصولا معتادا فى عام ينخفض فيه ماء النيل عن الحد الأدنى المطلوب.

والسنة الزراعية فى مصر تبدأ من شهر توت (٢٩ أغسطس) وتضم ثلاثة مواسم: الفيضان ثم البذر ثم الحصاد. وأهم المحاصيل المصرية القمح والشعير والأول يستخدم لانتاج الخبز والثانى فى صناعة الجعة، فضلا عن زراعات نقدية كالكروم والخضروات والزيتون والبردى. والفلاح رجل يقوم بكل أعمال الزراعة ومع ذلك فهناك متخصصون فى تقليم الكروم، وإن كان لايجب أن نتصور تفرغهم لمثل هذه الوظيفة.

اهتم الفلاحون بتوثيق إتفاقاتهم مثل عقود الايجار التى كانت لها صيغ محددة لضمان الحقوق والالتزامات بل وبعض الشروط الجزائية لمن يخالف نصوصها.

ورغم عمل الفلاح وإنتاجه لكافة المحاصيل فقد كان يتعرض للظلم فلا يبقى له من محاصيله بعد أداء الايجار للأفراد أو الدولة والديون المتراكمة عليه أثناء العام الزراعى وإيجارات الأدوات والحيوانات والافراد الذين يستعين بهم وأجور نقل محصوله الى مخازن الحكومة ثم الى الميناء النهرى أقول لايبقى له بعد كل ذلك مايكفيه لطعامه ولدفع إلتزاماته تجاه الحكومة من ضرائب رأس وغيرها.

ولايجب أن نذكر الزراعة دون أن نشير الى حيوانات الحقل والدواجن التى إعتنى بتربيتها الفلاح المصرى ومنها الأبقار والأغنام والماعز والخنازير وحيوانات الحمل كالجمل والحمار التى كان يستخدم جلودها فضلا عن وفرة من الطيور كالاوز والحمام والدجاج الخ....

انتاج البضائع والخدمات:

كانت مصر مشهورة بصناعتين من صناعاتها وهما الكتان وورق البردى وفى القرن الثالث وتتيجة للطلب الخارجى وسعت مصر انتاجها من الزجاج وأصبحت -بجانب سوريا- مصدرا كبيرا لتلك السلعة. تركزت هاتان الصناعتان فى الدلتا ولذلك فنحن نعرف قليلا من المعلومات عنهما بسبب قلة الآثار نسبيا بسبب الرطوبة. ومن ناحية أخرى فإن صناعة النسيج موثقة جداً وبالرغم من ندر عدد من المصانع الكبيرة فإنها بقيت صناعة منزلية، تمارس فى كافة أنحاء البلاد. وكان النساجون للأنواع الفخمة من الكتان والذين يقومون بتدريب الصبية كانوا أرستقراطيو الحرفة، التى كانت وراثية. ومع ذلك فالاولاد والبنات من عائلات أخرى -أحراراً وعبيداً- كانوا يبدأون التدريب ويتدربون عليها فيما بين العاشرة والثالثة عشر. وكان التدريب يمتد لعامين.

ولدينا عقود تسجل تدريب صبية عند بنائين ونحاسين وصناع الحصر والمسامير والزمارين وقص صوف الغنم وغزل الصوف. بالاضافة الى وثيقة تتحدث عن ستة من العبيد يتعلمون الإختزال والنسخ والسكرتارية وكاتب خطابات وطباخ وحلاق وعامل املاح.

والصناع الذين غالبا مايظهرون فى أوراق البردى فى العصر الرومانى هم البناءون وقاطعو الاحجار وصانعو الطوب والنجارون وعمال

الفخار وعمال المادن والخبازون والجزارون والحلاقون وصانعو الاحذية والصباغون والقانعون على رتق الملابس وعمل تطريز الملابس بعد النسخ، ثم يأتى بعد ذلك التجار وأصحاب المخازن -وكان معظمهم يتعامل فى منتج واحد كبيع الزيت أوالخضروات اوالصوف اوالفاكهة وهكذا. ومع ذلك كانت هناك سوق لكل البضائع يباع فيه فى نفس اليوم سمك مدخن وحبال ومخدات ونشا وحديد مشغول وأرجل مقاعد وصبغة الأرجوان وسلال السمك وفتيل الاضاءة.

كانت هذه هى المهن والحرف التى خدمت الاحتياجات الاكثر أهمية فى الحياة اليومية ومسك الختام الحانوتى والقائم على التحنيط وحافر القبر.

وكانت هناك مهن كثيرة إنتظم أصحابها فى نقابات وتخبرنا الوثائق عن وجود نقابات لسائقى الحمير والقماشين والصباغين والنساجين وعمال الفخار وعمال الزجاج ونقاشو الكتابة الهيروغليفية وقادة المراكب النيلية والبجارة وصناع الاحذية وتجار الملح وآخرين لم تسجل مهنهم. وانشئت فى القرن الرابع الميلادى نقابات لصناع الخبز ولحامى البرونز وتجار البيرة وتجار الزيت وهناك أخيرا مهنة المرضعة. المرضعة تأخذ الرضيع الى مكان إقامتها، مع وعد باطعامه وكسوته وإمداده بكل شئ ضرورى للحفاظ على حياته. وإن مات أثناء فترة العقد فهى مرغمة أن تأخذ طفلا آخر لكى ترضعه، بدون أجر إضافى. وبالاضافة الى شروط العقد الأصلى أحيانا يجرى تحديد أمور أخرى فلكى لايفسد لبنها لايجب إن تكون لها علاقه بأى

رجل ولا ان تصبح حاملا ولا أن ترضع طفلا آخر) وكان أجرها أجر عامل غير ماهر. يدفع لها جزء مقدما والباقى على أقساط شهرية.

وكان هناك جمعيه لفنانى المسرح تمتع أعضاؤها بالحصانة الشخصية وأسبقية الجلوس فى المسارح وغيرها والاعفاء من الخدمة العسكرية والاعفاء من الالتزامات وعدم خضوع مكاسبهم للضرائب والحق فى ألا يجبر على إيراء أجانب أو أن يعتقل تحت أى دعاوى أو يكون عرضة لتوقيع عقوبة الاعدام عليه.

وبالنسبة للرياضيين كانوا يتمتعون بالشهرة والجوائز المالية وشهادات مواطنة فخرية ودخول كبيرة طول الحياة بالاضافة الى الاعفاء من الضرائب والخدمات العامة الالزامية.

وقبل أن نختتم هذا الفصل نلقى نظرة سريعة على أصحاب المهن العلمية والاطباء الذين يظهرون فى الوثائق. ورغم عدم ذكر القابلة فى آلاف البرديات الا مرة واحدة فإن هذه المرة كافية لتذكيرنا بأن الفلاحين المصريين كانوا يلجأون اليها فى إحتياجاتهم الصحية. أما الأدوية فأغلبها نباتى. وهناك إشارة عدة مرات للطبيب البيطرى. والمعروف أنه لم تكن هناك دراسة منتظمة لتخريج طبيب بيطرى ولكن كان هناك التجريب تحت إشراف صاحب خبرة. وقد عثر على اكثر من خمسين قطعة من أعمال طبية.

ومانعرفه عن المحامين أقل مما نعرف عن الأطباء.

تعداد السكان والضرائب والخدمات الإلزامية :

تخلى أغسطس عن نظام التسجيل السنوى للسكان الذى كان متبعا بمصر أيام البطالمة وأقر بدلا عنه نظاما لتعداد السكان كل ١٤ سنة. وطول الفترة الزمنية يمثل الرقم المطابق للعمر الذى يتوقف عنده إعتبار الذكور المصريين قصرا ويسجلون لدفع ضريبة الرأس. وكان تعداد الأشخاص يتم تعديله طبقا للتغيرات التى تحدث من عام لآخر بمعرفة كاتب المدينة أو القرية.

أما نظام الضرائب فإننا نواجه مجموعة هائلة من الضرائب والضرائب الاضافية التى تفرض على الفرد والأرض والمهن والخدمات والمبيعات والتمويلات وحركة البضائع والناس والملكية العقارية والشخصية.

ومع ذلك فإن وطأة الحكم الرومانى إستشعرها الناس ليس بسبب زيادة عدد الضرائب وانما بسبب زيادة كفاءة التحصيل حتى يقال أن تيبيريوس الخليفة المباشر لأغسطس وبخ حاكم مصر لأنه أرسل الى روما إيرادات ضرائب تزيد عن الحصة المحددة فكتب يقول له "أريد أن يجز صوف شياهى لا أن تسلخ جلودها أحياء".

وكان الرومان قساة فى جمع الضرائب كما يتضح من الوثيقة التالية التى كتبها شاهد عيان "عين مزخرا في منطقتنا جابى ضرائب، عندما يتأخر بعض الرجال فى دفع الضرائب بسبب الفقر ويهربون خوفا من

العقاب كان ينزل العقاب بزوجاتهم واطفالهم وأبائهم وأقاربهم ضربا ووطنا بالاقدام ... وكانة أنواع الامتهان ... ولكن جابى الضرائب لم يكن لاتركهم قبل أن ينهك أجسادهم بالعصر والعذاب أو أن يقتلهم بطرق جديدة للموت. وعندما لايوجد أقارب كان يمتد العذاب الى الجيران وأحيانا كان يسجن قرى بأكملها. وسرعان ماتصبح القرى مهجورة وتخلو من سكانها ....

ولم يقتصر الأمر على ذلك بل كان على الناس أن يقدموا إمدادات إضافية من الطعام والمعدات والنقل لدعم حروب الامبراطورية الخارجية فضلا عن إعاشة واستقبال الزوار المهمين وحاشياتهم وكانت الأخيره تشمل جولة الحاكم وحاشيته سنويا.

وفى مصر طور الرومان نظاما للخدمات لم يكن له نظير فى شموله فى أنحاء العالم القديم، فكان يصل الى أبعد القرى ويفرض الخدمة على كل مستويات السكان.

وكما كان الحال بالنسبة للضرائب هناك من تمتع بالاعفاء من الخدمات مثل المواطنون الرومان وإغريق الحضر والرياضيون وأصحاب الجوائز وأعضاء المهن العلمية والأباء لخمسة أبناء والاشخاص الذين يعملون بمهن تعتبر ضرورية. وكان يتم إعفاء بقية أفراد الأسرة إن كان لديهم من هو مكلف بخدمة حتى ينتهى منها. وكانت النساء والمحاربون القدامى وبعض الكهنة والمسنون والمرضى معفون من الخدمات التى تتطلب جهدا

بدنيا.

واكتمل نظام الخدمات الالزامية على عهد تراجان عندما حول كثيرا من الضرائب الى خدمات إلزامية. نعرف حتى الآن حوالى مائة خدمة إلزامية كان يكلف بها الأشخاص مثل موظفى ورجال الشرطة فى القرية أو المدينة وجباة الضرائب وناقلى الحبوب ومفتشى الفيضان والحقول ومراقبى الاعمال العامة وتحصيل الضرائب والقيام بامداد الموظفين الزائرين بحاجاتهم ورجال البنوك بتسليم الأموال العامة، والأوصياء على القصر وأعضاء مجلس العاصمة والموظفين السامين بها. كانت مدة التكليف الالزامى تتراوح مابين عام وثلاثة أعوام يعفى بعدها الشخص من تكاليف أخرى لفترة سنوات ولكن تحت ضغط الظروف كانت الفترات البينية تختصر.

وكان المكلف بخدمة إلزامية توضع أمواله وأملاكه تحت الحجز لصالح الدولة، وكان يؤدى قسما بالاخلاص. بالاضافة الى عدد من الضمانات الأخرى منها ضمانة الأشخاص الذين رشحوه. وإذا جاوز خطأ القائم على التعيين حسن النية كان من الممكن إلزامه بدفع قيمة الأضرار.

والواضح أن الخدمات الالزامية كانت شيئا يسعى الناس الى تجنبه حتى لجأ الناس الى رشوة القائمين على الاختيار لتجاوزهم ومن كان يفشل فى تجنب ذلك كان يتنازل لمن يقبل القيام بالخدمة بدلا عنه عن جزء من ماله بل وفى فترات الانهيار الاقتصادى فى القرن الثالث عن كل ماله.

وعندما كان يزداد العبء على المصرى كان يهرب من قريته ويلجأ الى الصحراء. وقد إستمر الرجال يهربون خلال كل قرون الحكم الرومانى واستمرت الحكومة تحصد مازرعته يديها قلة فى الأيدى العاملة وتدهور فى الايرادات، وحالة تعبئة عسكرية نشيطة ضد عصابات السرقة المتعددة التى كونها الهاربون من مكان الى آخر.

المعبودات والعبادات:

عاش فى مصر على العصر الرومانى أجناس شتى وكل جنس جاء الى مصر بثقافته ومعبوداته. إنتشر هؤلاء فى أصقاع مصر من أقصاها الى أقصاها وكان عليهم أن يتقربوا لمعبوداتهم بالصلوات والاحتفالات والقرابين من وقت آخر. لم يكن هذا متاحا حيث المعابد المنتشرة كانت مصرية ومخصصه لمعبودات مصرية ولذلك كان على الاجناس الوافدة أن تتكيف مع الواقع الجديد وأن تستفيد بتجربة الاغريق الذين واجهوا نفس المشكلة قبل ثلاثة قرون. وفى النهاية بحثوا عن المعبودات المصرية التى تماثل صفات معبوداتهم وقدموا لها القرابين باسماءهاالمصرية أو باسماء شبيهاتها الاغريقية. وفعلت الأجناس المتعددة ما فعله الاغريق من قبل. فصاروا يقدمون القرابين للآلهة المصرية المقابلة لآلهتهم بأسمائها المصرية أو بأسمائها فى تراثهم الخاص. وكان التنوع كبيرا فهناك الرومان وهناك أجناس من منطقة الهلال الخصيب ومن آسيا الصغرى فضلا عن الاغريق والمصريين.

ونجد ديودور الصقلي يذكر في هذا الموضوع إن نفس الالهة التي يسميها البعض إيزيس ويطلق عليها آخرون ديمتير والبعض يسميها مانحة القانون وسيلين (القمر) وهيرا، والبعض يدعونها بكل هذه الالقاب مجتمعة وأطلق البعض على أوزوريس ديونيسيوس والبعض أطلق عليه اسم بلوتو أو آمون وعدد يسمونه زيوس وكثيرون يسمونه بان.

ثم أضيف الى هذه المعبودات عبادة الأباطرة. وكانت تقام لها إحتفالات في المعابد بالاضافه الى الاعياد الدينية المصرية. وسواء كانت العقيدة المصرية تقام في البيوت أم في خارجها، جماعة أو فرادى، فإنها كانت مشبعة بالعناصر السرية والسحرية.

وفي العصر الروماني كانت القاعدة هي إتباع سياسة التسامح الديني ولذلك إستمر سكان مصر يعبد كل منهم آلهته، وإن تعرض اليهود لبعض المتاعب بسبب رفض عقيدتهم تقديس الأباطرة او آلهة الرومان ولكن الجديد في ميدان العقيدة في مصر حدث مع دخول المسيحية فقد حارب أباء الكنيسة منذ أيامها المبكرة عبادة الحيوان وسعى المسيحيون بعد الاعتراف بالمسيحية دينا رسميا الى محاولة القضاء على الوثنية وساعدهم أن الامبراطور ثيردوسيوس (٣٧٩-٣٩٥) فرض المسيحية كدين وحيد في الامبراطورية. ونفذت الحكومة والرهبان هذه القرارات بحزم وحسم فأغلقوا المعابد بل وصل الأمر الى هدم المعابد كان ذلك في الأسكندرية والدلتا. ولكن سلطة الحكومة كانت قاصرة في الوجة القبلى عن تحقيق ذلك بدقة

ومع هذا تجد على جدران المعابد حتى اليوم بقايا محاولات إزالة صور المعبودات القديمة(١).

---

(١) نقلاً عن: ويس ، ترجمة فوزى مكارى ، مصر الرومانية ، القاهرة ١٩٩٢م.
فوزى مكارى وآخرون ، مصر تحت حكم الرومان ، القاهرة ١٩٨٧م.
إدريس بل ، الوثنية في مصر من الاسكندر الى الفتح العربى ، ترجمة زكى على دار المعارف القاهرة.

خاتمة

تعتبر نهايه القرن الثالث نهاية للعصر الرومانى حيث إنقسمت الامبراطورية بعد تنظيمات دقليديانوس السياسة الى نصفين شرقى وغربى. وبدأ النصف الشرقى الذى إتخذ عاصمة فى القسطنطينية يحيى تقاليد الحضارة الأغريقية ودخل الشرق فى عصر إصطلح على تسميتة بالعصر البيزنطى. وهو مرضوع يتعدى المدى الزمنى لاهتمام هذا الكتاب.

الشرق خلال العصر الهلينستي

أولا: مراجع باللغة العربية:

- إدريس بل . الهلينية فى مصر من الاسكندر الى الفتح العربى ترجمة زكى على، دار المعارف بالقاهرة.
- زكى على ، كليوباترة ، القاهرة بدون تاريخ.
- فرزى مكاوى ، تاريخ الإغريق، دار البيضاء ١٩٨٠م.
- فرزى مكاوى ، قبرص تحت حكم البطالمة ، طنطا ١٩٨٥م

ثانيا: مراجع بلغات أجنبية:

E. Badian,"Alexander the Great",*The Classical World* 65 (1971), 37-56 and 77-83..

B. Bar-Kochva, *The Seleucid Army* (Cambridge,1976).

E. J. Bickerman, *Chronology of the Ancient World*(London,2nd ed., 1980).

---

(٥) راجع ايضا ماذكر من مراجع أخرى فى الهوامش.

D. J. Crawford, *Kerkeosiris:an Egyptian village in the Ptolemaic period* (Cambridge, 1971).

W. S. Ferguson, *Hellenistic Athens* (London,1911).

P. M. Fraser, *Ptolemaic Alexandria* , 3vols. (Oxford,1972).

P. Green, *Alexander the Great* (London, 1970).

G. T. Griffith, *The Mercenaries of the Hellenistic World* (Cambridge, 1935).

N. G. L. Hammond and G. T. Griffith,*A History of Macedonia* ,vol.2 (Oxford,1979).

E. V. Hansen, *The Attalids of pergamum* (Ithaca,N.y,2nd ed.,1971).

A. H. M. Jones, *The Greek City from Alexander to Justinian* (Oxford, 1940).

Id. and others, *The Cities of the Eastern Roman Provinces* (Oxford, 2nd ed.,1971).

R. Lane Fox, *Alexander the Great* (London,1973).

J. A. O. Larsen, *Greek Federal States* (Oxford,1968).

H. I. Marrou, *Histoire de l'education dans l'antiquite* (6th ed., 1965).

O. Morkholm, *Antiochus IV of Syria* (Copenhagen,1966).

H. A. Ormerod, *piracy in the Ancient World* (liverpool,1924).

C. Preaux, *Le monde hellenistique. La Grece et l Orient* (323-146 av J.c.), 2 vols.(Paris,1978).

M. Rostovtzeff, *The Social and Economic History of the Hellenistic World, 3vols* (Oxford,1941).

W. W. Tarn, *Alexander the Great, 2vols.* (Cambridge,1948).

W. W. Tarn and G.T.Griffith, *Hellenistic Civilization* (London,3rd ed ., 1952).

W. W. Tarn, *Antigonus Gonatas* (Oxford,1913).

F. W. Walbank, *Aratos of Sicyon* (Cambridge,1933).

Id. *Philip V of Macedon* (Cambridge,1940).

id. *The Hellenistic World* (London,1981).

الشرق خلال العصر الروماني

أولا : مراجع باللغة العربية:

• إدريس بل، الهلينية في مصر من الاسكندر الى الفتح العربي، ترجمة زكي علي، دار المعارف بالقاهرة.

• السيد احمد الناصري، الأمبراطورية الرومانية، القاهرة

• رستوفتزف م، تاريخ الأمبراطورية الرومانية الاجتماعي والاقتصادي، ترجمة زكي علي ومحمد سليم سالم، القاهرة.

• زكي علي . كليوباترة ، القاهرة، بدون تاريخ.

• عبد اللطيف احمد على، مصر والامبراطورية الرومانية فى ضوء الأوراق البردية، القاهرة.

• فرزى مكارى ، تاريخ الرومان ، القاهرة ١٩٩٣م.

• فرزى مكارى وآخرون، مصر تحت حكم الرومان ، القاهرة ١٩٨٧م.

• نفتالى لويس، ترجمة فرزى مكارى، مصر الرومانية، القاهرة ١٩٩٣م

• ول ديورانت، قصة الحضارة حـ ١١ قيصر والمسيح، القاهرة ١٩٧٣م.

ثانيا: مراجع بلغات أجنبية:

The Cambridge Ancient History, edited by S.A.Cook,F.E.Adcock and M.P.Charlesworth: vii,*The Hellenistic Monarchies and the Rise of Rome*(1928) :viii,*Rome and the Mediterranean*,218-133B.C.(1930) ; ix, *The Roman Republic*,133-44 B.C.(1932) ; x, *The Augustan Empire* , 44 B.C.-A. D. 70 (1934) ; xi, *The Imperial Peace*, A. D. 70-192. (1936) ; xii,*The Imperial Crisis and Recovery*, A.D.193-324 (1939).

M. Grant, *The World of Rome* (1960).

A. H. M. Jones, *The Later Roman Empire*, 284-602(3vols, 1964).

A. H. M. Jones, *A History of Rome through the Fifth Century* :i,The Republic (1968) ; ii, The Empire (1970).

N. Lewis and M. Reinhold , *Roman Civilisation* : i , The Republic (1951) ;ii, The Empire(1955).

A. H. McDonald, *Republican Rome* (1966).

Methuen's *History of the Greek and Roman World*, edited by M. Cary: iv, *A History of the Roman World*, 753-146 B.C. by H.H. Scullard(3rd ed.1961) ; v, 146-30B.C.by F.B.Marsh(3rd ed.revised by H.H.Scullard,1963) ;vi,30 B.C.-A.D.138 by E.T.Salmon(5th ed. 1966) ; vii , A. D .138 - 337 by H. M. D. Parker(2nd ed.revised by B.H.Warmington,1958).

F. Millar, *The Roman Empire and its Neighbours* (1967).

Th. Mommsen, *The History of Rome* (Engl. trans. 1911) ,i.e.of the Repulic ; old , but a classic.

M. Rostovtzeff,*A History of the ancient World*,ii,Rome(1927, revised by E. Bickerman,1961).

M. Rostovtzeff , *The Social and Economic History of the Roman Empire* (2vol, 2nd ed. 1957, by P.Fraser).

J. Vogt, *The Decline of Rome* (1967).